الموسوعة الصغيرة

٢٢٦

في علم اللغة

د. غالب المطلبي

الموسوعة الصغيرة

سلسلة ثقافية تتناول مختلف العلوم والفنون والاداب

تصدرها دار الشؤون الثقافية العامة

١٩٨٦

دار الشؤون الثقافية العامة

وزارة الثقافة والإعلام

العراق ـ بغداد ـ اعظمية ص.ب ٤٠٣٢ ـ تلكس ٢١٤١٣ ـ هـ ـ ٤٤٣٦٠٤٤

في علم اللغة

د. غالب المطلبي

المقدمة

في التعريف السقراطي للأنسان كانت اللغة وحدها هي الجوهر ، فلقد لاحظ الفيلسوف العظيم أن القيمة العقلية للأنسان مرتبطة ارتباطا مباشرا بتلك الاداة التي تسمى « اللغة » بل ان اللغة في نظر القدماء جميعا من فلاسفة وادباء وعامة أيضا شيء له قدسية ما، قدسية قد لا يكون في ميسور المرء تفسيرها، ولكنها على أية حال مقبولة ، ولعلهم من أجل ذلك نظروا اليها على أنها هبة الله للأنسان، اذ علمه الاسماء كلها، وأعطاه السر وحده من دون سائر المخلوقات : سر الكلمات التي لا تقدر بثمن كما يقول مايكوفسكي.

ومن أجل ذلك أيضا كان للغة أهمية خاصة في نظرية المعرفة الانسانية باختلاف البيئات وتباين الاقوام ومرور الأزمان، فكان ثمة طائفة من الاسئلة المتعلقة

بها، وكان ثمة أيضا مغامرون لطيفون حاولوا الاجابة عنها بطرائق مختلفة ، كانوا يتخيلون أحيانا أنهم أمـــام طلاســـم أقرب ما تكون الى طلاســـم أبي الهول ، وفي أحيان أخرى كانوا يتصورون الأمر وكأنه تفويض ما، لكن اللغة على أية حال لعبة قد استهــوتهم ، كانوا يعرفون الى حد ما أنها لعبة العقل البشري المفضلة ، وسره أيضا.

هذا الكتاب الصغير يحاول أن يرحــل مع هؤلاء المغامرين في رحلتهم الطويلة ، يلح معهم في البحث عن أجوبة لاســئلة طالما بقيت ساكنة في افئدتهم ، وفي احيان قليلة يكشف اوراقهم الصفر المطويــة ، ليرى اجاباتهم المختلفة ، المتصنعة ضربا مـــن الجـــد ، ويعجب اشد العجب لتلك الارواح العظيمة التي كانت تتأمل ، تتأمل فحسب تلك اللعبة العجيبة ، تاركة العالم وراءهـــا في صخبه، وفي عنفه الذي لا حد له.

الفصل الاول

تاريخ البحث اللغوي

في بداية هذا القرن ولد علم يسمى علم اللغة الحديث[1] يبحث في موضوع واحد هو ... اللغة ، ويحاول اعطاءنا صورة اجمالية عن القوانين التي تتحكم في سلوكنا اللغوي، ويضعنا أمام الطرائق التي تسلكها اللغات في بناء جملها وصياغة مفرداتها ، واساليب تعبيرها ونظامها الصوتي، ونسأل فيه أسئلة شبه فلسفية من قبيل : ما اللغة وما وظائفها؟ كيف نتعامل بها؟ كيف نتعامل معها؟ وكيف نتعلمها؟ وكيف نعلمها ؟ كيف نحللها؟ الخ.

ولقد وصل هذا العلم في عصرنا الى قمة عالية ، اذ أصبح متشعبا عميقا ، قادرا على استيعاب ثقافات العصر وتقنياته ، بفضل المناهج العلمية الصارمة والنظريات الفلسفية المعقدة ، التي تحاول الوصول الى أسرار العمليات اللغوية العقلية وحسابها . أي ان هذا العلم أصبح أقرب ما يكون الى روح العصر . بعد ان كان مجرد اجتهادات وافتراضات وقواعد معيارية ، بيد

أن علينا أن نقول ان تلك الاجتهادات هي التي قادته الى هذه المرحلة ، وهي اجتهادات كثيرة قديمة تمثل في حقيقتها تاريخ البحث اللغوي العلمي في العالم ، ونحن على أية حال نعرف منها الكثير غير أن ذلك، وهو ما نأسف له ، لا يكاد يتجاوز القرن السادس قبل الميلاد. منذ أول لغوي عرفه التاريخ المدون، وهو الهندي بانيني (Panini) الذي وصفته دائرة المعارف البريطانية بأنه أقدم نحوي معروف في العالم[٢]. ومن المؤكد أن هناك المئات قبله . ممن سأل تلك الاسئلة الغريبة عن اللغة وجوهرها ، غير أن شيئا من آثارهم لم يصل الينا .

لقد قدم بانيني للعالم أول بحث لغوي ناضج . ولقد كان ذلك عن اللغة السنسكريتية ، وضع فيه تعريفات عامة، وقواعد موجزة كما عالج مشكلات صوتية وصرفية متعددة ، وحاول بناء هيكل لقواعد تلك اللغة المقدسة القديمة[٣].

لكن الهند لم تكن قلب العالم القديم ، وكانت حضارتها بعيدة بعض البعد ، ثم ان اليونان قد بدأت تستفيق من أحلامها الطوباوية لتدخل عصر ثقافة العقل، كانت الفلسفة قد بدأت في الانتشار في أفنية أثينا ومجالسها الخاصة ، وكان سقراط قد بدأ سجاله العظيم مع السفسطائي جورجياس حول الخطابة والكلام[٤] وكان النحاة الاغريق قد بدأوا لغطهم الجميل حول اللغة ، حتى اذا جاء ارسطو المعلم الاول كان النحو الاغريقي قد اكتمل فأصبح على رأي فرديناند دوسوسير أول المراحل العلمية الناضجة في تاريخ البحث اللغوي التي تستحق أن تسمى ولقد اطلق على تلك المرحلة اسم «الحركة النحوية الاغريقية»[٥].

لقد حاولت هذه المرحلة الافادة من علم المنطق في وضع قيم معيارية تعليمية لقواعد اللغة ، تنزع الى تمييز الصحيح من الخطأ ولقد بقيت أفكار هذه المرحلة مسيطرة الى حقبة متأخرة وبالتحديد الى الربع الاخير

من القرن الثامن عشر حين بدأت رياح الاكتشـــافات الجغرافية والتاريخية تهب على اوربا ومع تلك الرياح نشأت أفكار جديدة في معالجة اللغة • فظهر ما يطلق عليه عادة «المرحلة الفيلولوجية » philology (٦) •

لكن قبل ذلك بكثير منذ القرن الميلادي الثامن كان العرب المسلمون قد بدأوا رحلتهم السندبادية الى اعماق اللغة(٧) ولقد كان ذلك بتأثير مباشر للدراسات القرآنية، بدأها فريق صغير على رأسه أبو الاسود الدؤلي المتوفي عام ٦٥ للهجرة• ومن المحتمل كما تشير بعض الاخبار انه كان أول من أسس الدراسة النحوية العربية ثم ظهر بعده علماء اهتموا بالدراسات اللغوية عامة امثال عنبسة الفيل وميمون الاقرن وعبدالله بن أبي اسحق وأبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر ويونس بن حبيب وأبي جعفر الرواسي، الذين اسهموا الى حد كبير في ترسيخ البحث اللغوي غير ان ذلك البحث صار علما واضح المعالم على يد رجلين هما الخليل بن احمد الفراهيدي (١٧٠ هـ)

وتلميذه سيبويه (١٨٠ هـ) اذ اسهما بالقسط الاكبر من البحث اللغوي العربي الرائد ، فالخليل هو أول من وضع معجما للعربية وأول من درس الاصوات اللغويةدراسة علمية ، بل أن هذه الدراسة تمثل في حقيقة الامر الخطوة الكبيرة في حقل دراسة الاصوات اللغوية ، ليس عند العرب حسب ولكن بالنسبة للعالم ايضا ، كذلك فأنه قد ساعد تلميذه سيبويه الى حد بعيد في وضع ما يمكن أن نطلق عليه اسم «نظرية النحو العربي» في وضعها النهائي، وان كانت قد ظهرت بعدهما اختلافات منهجية في هذه النظرية بين مدرستي البصرة والكوفةالنحويتين، بيد انها لم تكن اختلافات جوهرية ، ولا تؤثر فيالاطار العام لتلك النظرية ولكنها قد تعني من جانب آخر أن البحث اللغوي العربي قد أخذ بعدهما مداه الواسع في النقاش والمحاورة والاضافة والاعادة.

غير أن علينا ان نلاحظ أن الدراسات اللغويةالعربية تلك كانت بصورة عامة ذات نزعة معيارية تقويمية أي

انها تحاول وضع قواعد لتمييز الصحيح من الخطأ ، ثم ذات نزعة تعليمية مما جعلهـا بعيدة قليلا عن البحث اللغوي الخالص، محددةفقط بدراسة اللغة العربيةوحدها بمعزل عن اللغات الاخرى،مما أدى بها الى أن تجنح بعض الشيء عن النتائج اللغوية العامة بيد ان تلك الملاحظات اللغوية العامة ، اذا أردنا الدقة كانت مبثوثة هنا وهناك، يمثل ما نلاحظ من آراء في نشأة اللغة على النحو الذي يذكره ابن جني أو أبو علي الفارسي، أو الاطار الفلسفي لنظرية النظم عند عبدالقاهر الجرجاني أقدم مؤسسي النحو التركيبي في التاريخ البشري، أو قضية اللغةبوجه عام عند ابن سينا في ذلك الجـزء من مؤلفـه الكبير (الشفاء) المعنون بالعبارة أو الدراسات الدلالية عند الاصوليين أو المفسرين أو الدراسـات الصوتية عنـد الخليل وسيبويه ومكي بن أبي طالب وأصحاب المعجمات وكتب القراءات والصرف.

نعود مرة أخرى الى أوربا ... الى القرن الثامن

عشر وعلى وجه التحديد الى عام ١٧٧٧م ، حين بدأ أوجست وولف المرحلة الفيلولوجية ، مرحلة هواة المقالة فكلمة فيلولوجيا تعني حب الكلام ، والمقصود بها هنا العناية بدراسة النصوص ـ الذين بدأوادراسه النصوص المكتوبة القديمة ، وهكذا نشأ فن التحقيق واستطلاع طبيعة اللغات القديمة والدلالات اللغوية المنقرضة وتعمقت الدراسات اللغوية التاريخية ، ونزعه تتبع تطور المفردات وتغير أحوالها وطرائق استعمالها ، لكن ذلك كان ابتعادا عن موضوع البحث اللغوي الاكبر ، وهو تحليل اللغة نفسها ثم انه كان مرتبطامن جانب آخر بأهداف قد لا تكون لغوية في ذاتها من نحو استطلاع التاريخ الادبي لتلك النصوص أو اللغات واستقراء المعلومات الاجتماعية والثقافية والدينية لها .

بيد انها مع كل ذلك قربتنا من الطريق الصحيحة للبحث اللغوي الخالص، اذ كانت الدافع لبدء تلك المغامرة الرائعة التي قام بها فرانز بوب وهو يقرأ في

نصوص من تلك اللغة الهندية الميتة المسماة بالسنسكريتية فتبين له ذلك الخيط الرفيع في مشابهة هذه اللغة لطائفة من اللغات الاوربية وهكذا خرج علينا عام ١٨١٦ بأول كتاب في علم اللغة المقارن هو «نظام التعريف في السنسكريتية، مع مقارنة بالاغريقية واللاتينية والجرمانية» ثم تعمق هذا الاتجاه مع علماء مثل جاكوب جريم وماكس مولر وختم على يد شلايشر الذي جعله ناضجا في كتابه «مختصر عن النحو المقارن للغات الهندو ــ جرمانية» اذ صنف هذا الضرب من الدراسات ووضعها في أطار منهجي علمي ، وان كانت ما زالت بعيدة عن علم اللغة الخالص ، الذي بدأت ارهاصاته الواضحة مع داييز Dies في كتابه «قواعد اللغات الرومانية» الذي درس فيه اللاتينية وتتبع لهجاتها المحلية المحكية، وبذلك خرج أول مرة عن دراسة اللغة المكتوبة الى اللغة المحكية ، ثم تطور هذا الاتجاه على يد العالم الاميركي وتني Whitny في كتابه «حياة اللغة» الذي صدر عام ١٨٧٥ (٨).

بيد أن علم اللغة اخذ صورته الناضجة في اوائل هـذا القرن على يد العالم اللغوي الذائع الصيت فرديناند دوسوسير «١٨٥٧ـ١٩١٣» الذي وضع المناهج الاساسية المعتمدة الى يومنا هذا في الدراسات اللغوية الحديثة.

ان اهم فكرة جاء بها هذا العالم كانت تحويل البحث اللغوي الى علم مستقل قائم بنفسه ، يدرس اللغة « بذاتها ولذاتها » بعيدا عن النزعة المعيارية من تصحيح للخطأ أو وضع لقواعد عامة لمحاكاتها ، أو النزعة التقويمية من تبيان ما هو جميل أو قبيح ذاهبا الى أن اللغة منظومة معقدة غاية التعقيد ودراستها ينبغي أن تكون أكثر من محاولة التصحيح والتعقيد وبيان مواطن الجمال ، ان على تلك الدراسة أن تنصب على محاولة تحليل اللغة وبيان بنيتها.

ولد فرديناند دوسوسير في سويسرا عام ١٨٥٧ ودرس في جنيف ، ثم انتقل الى المانيا ، والتقى هناك

بمجموعة من اللغويين الالمان ذوي النزعة الفيلولوجية وفي الثامنة والعشرين من عمره نشر كتابا بعنوان (نظام المصوتات الاصلي في اللغات الهندو ــ اوربية) فأخذ من تلك اللحظة يحتل مركزا مرموقا في الدرس اللغوي فجعل يحاضر في النحو المقارن ، ثم عن علم اللغة العام الذي خلف فيه محاضرات طبعت بعد وفاته ، ولقد كانت هذه المحاضرات أهم عمل في الحقل اللغوي حتى ذلك العصر ، فلقد بين فيها الاسس التي يقوم عليها علم اللغة الحديث.

بدأ دوسوسير ، وكان ذلك بتأثير مباشر لآراء العالم الاجتماعي الكبير دور كايم Durkheim (١٨٥٨ــ١٩١٧) بتحديد اللغة بوصفها شيئا عاما ، لقد اقتبس دوسوسير ذلك من دوركايم الذي كان يحدد الوقائع الاجتماعية بوصفها اشياء تشبه الاشياء التي تدرس في العلوم البحتة وهذا يعني ان تلك الاشياء الاجتماعية ذات طبيعة عامة ، أي انها ليست فردية ،

ومن ثم لا يمكن ادراكها بالنشـــاط العقلي الداخلي، ولكن بما تقتضيه من الخبرة والملاحظـــة والتجربـــة والتصنيف ومن هذا المنطلق وضـــع تفرقتـــه الشهيرة بين مصطلحات ثلاثة تتصل باللغـــة ، محاولا من خلال ذلك الوصول الى الحقل الذي تكون فيه اللغة شـــيئا عاما ، ومن ثم تصلح لأن تدرس دراسة علمية بحتة وهذه المصطلحات هي:

١ ــ اللغة language وقصد بها تلك القوى الكلية الدائمة التي تعمل في كل اللغات ، انهـــا فكرة اللغـــة بمعناها العـــام ، وهي ليست بشيء يمكن تحـــديده وبالتالي اخضاعه للدراسة العلمية.

٢ ــ اللســـان A language ويقصد به اللغةالمعينة أي تلك المجموعة المنتظمة المنسجمـــة مع نفسهـــا من الرموز والعلاقات التي تصطلح عليها الجماعة ويشترك في استعمالها جميع أفراد تلك الجماعة بتعبير آخر انها اللغات الانسانية المعروفة ، المحددة المعـــالم التي تمثل

دوائر مغلقة كالعربية والفرنسية والانكليزية ... الخ، وهي على حد تعبير دوسوسير نفسه «رصيد يستودع في الاشخاص الذين ينتمون الى مجتمع واحد بفضل مباشرتهم للكلام ، وهو نظام نحوي يوجد وجودا تقديريا في كل دماغ أو على الاصح في ادمغة المجموع من الاشخاص لأن اللسان لا يوجد كله عند احد منهم، بل وجوده بالتمام لا يحصل الا عند الجماعة» ولقد وصل هذا الاستنتاج بدوسوسير الى ان هذه النظرية هي التي تجعل اللغة واقعة اجتماعية وليست فردية ومن ثم تصبح شيئا عاما يمكن دراسته دراسة علمية خالصة.

٣ ـ الكلام Parole وهو استعمال الاشخاص للغة وهذا يعني انه نشاط فردي يستعمل جزءا صغيرا من اللغة بصورة متعمدة متبصرة ، ولأنه فردي ولأنه واع فانه لا يخضع للدراسة العلمية الخالصة[٩] ومن أفكار دوسوسير التي نشرت عام ١٩١٦ أي بعد وفاته

بثلاثة أعوام في كتاب بعنوان «محاضرات في علم اللغة العام» بدأت الحركة اللغوية العلمية الحديثة في العالم بيد انه ينبغي الاشارة ههنا الى أن هذه الافكار الكبيرة لم تجد صداها الحقيقي في العالم الا بعد سنوات عديدة حين فطن الى عمقها عالمان كبيران من روسيا هما الامير نيكولاي تربتسكوي (١٨٩٠ــ١٩٣٨) مؤسس علم الفونولوجيا الحديث ، وزميله رومان ياكوبسن «١٨٩٦ــ١٩٨٣» ومنهما عرف العالم القيمة الحقيقية لآراء دوسوسير فأقبل الناس على الكتاب وكثرت الترجمات من الفرنسية الى اللغات الاخرى، ولعل من الطريف ان نذكر ههنا ان اول ترجمة لهذا الكتاب الخطير كانت لواحدة من اللغات الآسيوية البعيدة جدا عن طبيعة اللغات الهندو ــ اوربية ، وأعني بها اللغة اليابانية ثم تعددت التعليقات عليه والمناقشات حول مقاصده ومعانيه .

ومن آراء دوسوسير انبثقت مدارس لغوية متعددة

كمدرسة جنيف وحلقة براغ وحلقة كوبنهاكن ، وكان لتلك الآراء الاثر العميق في تأسيس ذلك المنهج الذي عرف بالمنهج البنيوي struetnralism ليس في حقل اللغويات فحسب ولكن في حقول علمية وانسانيةأخرى كالانثربولوجيا .

وفي اميركا ظهـرت ايضا مجموعـة من اللغويين المتحمسين المتـأثرين تأثرا محدودا بأفكار دوسوسير . ذلك ان الحاجة اضطرتهم الى ارتجال المناهج المناسبة لدراسة مجموعة كبيرة من اللغات القريبة منهم وأعني بها لغات الهنود الحمر ، كانوا في أول امرهم في حاجة للعيش وسط اولئك الاقوام وتسجيل نصوص كثيرة من لغاتهم وتصنيفها ، ومن ثم استنبـاط قواعدها وطرائق التركيب والتعبير فيها شيئا فشيئا ترسخ عندهم ضرب من المناهج الوصفية التصنيفيـة عرف العـالم طرائق هؤلاء اللغويين وقدرتها على بيان العلاقات اللغوية . وهكذا ظهرت عندنا أسماء علماء مثل سابير وبلومفيلد

وهذا الاخير له الفضل في امتياز علم اللغة الاميركي من البحوث الاوربية واعطائه طابعه الخاص ومن ثم تأسيس نظرية لغوية خاصة ومدرسة اميركية عرفت بالمدرسة البنيوية الاميركية التي انجبت مجموعة ممتازة من اللغويين ، امثال بايك وهاريس البنيوي المرموق ، لكن أعظم من انجبته هذه المدرسة كان ذلك الشاب المنشق عنها نوم تشومسكي صاحب النزعة الديكارتية الذي قدم عام ١٩٥٧ وهو في الثامنة والعشرين من عمره رسالته الشهيرة «الابنية النحوية» مضمنا اياها أفكارا لغوية جديدة احدثت في الحقيقة اكبر انقلاب في تاريخ هذا العلم.

لقد قفز تشومسكي قفزة عالية على البحوث التي سبقته لقد رأى في تلك البحوث والنظريات جميعا نظرة أحادية قصيرة اذ ان اللغة ليست ظاهرة عامة منفصلة عن الانسان صالحة للتصنيف والمعالجة بوصفها ظاهرة اجتماعية ، انها شيء متصل بالانسان تمام الاتصال ،

انها كامنة فيه بحيث لا يمكن النظر اليها الا من هذه الزاوية ، مما يؤدي الى الاعتقـاد بأنه لا يمكن لايـة عملية تصنيفية ان تحدها ، ومن ثم فكل استنتاج في هذا المجال سيكون ناقصا.

لقد اخذ تشومسكي على من سبقـه توقفهم على المادة اللغوية المكتوبة والمسموعة ، فبين الخطأ الجسيم في هذه النظرة لقد فكر على الطريقة الآتية (كل انسان بالغ يتكلم لغة ما، قادر في كل لحظة على اصدار أو تلقي أو فهم عدد غير محدود من الجمل التي لم ينطق بها من قبل البتة ، أو لم يسمعها وكل ذلك يتم عفو الخاطر) مما حداه الى الاقرار بأن هناك كفاءة لغوية عند الفرد، وابداعا لغويا لا ينضب يسمح له بتأليف جمل جديدة غاية الجدة ، لم يكن قد سمعها من قبل ، فقاده ذلك الى أن يثير طائفة من الاسئلة ما كان البحث اللغوي قبله قد اثارها ، من قبيل ماذا يحدث في ذهن الانسان حين يصنع جملة لغوية او يفهمها ما الخطوات الذهنية

اللاشعورية التي ترافق العمليات اللغوية ، ثم ما علاقة ذلك بالاحداث اللغوية[١٠]؟

وهكذا على يد تشومسكي وزملائه خرج علم اللغة من الاسار الذي وضعه فيه دوسوسير في نظرته للغة على أنها «واقعة اجتماعية» الى مجال ارحب، وهكذا أيضا صار ذلك التعريف الشهير للغة بأنها « ظاهرة اجتماعية» تعريفا ساذجا عند المتخصصين في هذا الحقل، بل «كامنة» ، وليست اجتماعية بل انسانية «وانسانية هنا تضرب على شيء من الفردية» .

لقد عادت الروح الفلسفية الى البحث اللغوي مرة أخرى لان الافتراض الرئيسي في هذا البحث يكمن في أن اللغة توجد حيث يوجد العقل .. ومن هذه المنطلق نستطيع أن نفهم سيطرة النزعة الديكارتية عليه في العقود الاخيرة .

الفصل الثاني

ما اللغة ؟!

هـذا السؤال الذي اعتقـد (ميشيل فوكو) انه يلخص تاريخ الفلسفة[1] مـا زال الى يومنـا محتفظا بقوته ، مع ان الاجابات كانت من الكثرة بحيث لا يمكن حصرها، ولعل ذلك الاحتفاظ بالقوة كان متأتيا من ان تلك الاجابات في حقيقة الامر كانت جزئيـة الى حـد بعيد، ثم لأن هذا الضرب من الاسئلة يستدعي بالضرورة اسئلة اخرى محيطة به، من نحو: كيف ننظر للغة اولا، أهي نظام مستقل عن الانسان بحيث يمكن دراستـه منفصلا عن العقل ، أم اننا لا نستطيع ان نفعل ذلك ، لأن اللغة ليست حقلا ماديا مستقلا عن الانسان ، ومن ثم فأن أية دراسة لبناء الجملة والمفـردات والنظـام الصوتي والدلالات ليست سوى دراسة للمظاهر التي تخرج بها اللغة الانسانية علينا، واذا اردنا تعبيرا قريبا من المصطلح الفلسفي قلنا إِن ذلك ليس سوى دراسـة

للعرض، بعيدا عن الجوهر، أعني اللغـــة الكامنة في عقولنا.

ثم اذا كان لنـــا أن نعيـــد النظر مرة اخرى ، ألا يجوز لنا أن نذهب الى أن تحديد اللغة في حقيقة الامر مرتبط ايضا بالوظائف التي تؤديها، وهذا يعني اننـــا نعود مرة أخرى لنسأل اسئلة جديدة، حقا وما وظائف اللغة ، أهي كما يشاع في اوساط المتعلمين بوجه عـــام وظائف مرتبطة بالتفكير والتعبير فقط، أم ان للغة وظائف أخرى، خفية بعض الخفاء، تحتاج منا الى تأمل وتدبر دقيقين للوصول اليها فأذا وصلنا اليها وصلنا الى حقيقة اللغة أو جوهرها .

هذه الاسئلة تجعلنا اذن نشعر بعمق ذلك السؤال: ما اللغة؟!

وفي الحقيقة ان الاجابات المتعددة كانت ، وهـــذا ما نأسف له، قاصرة ، جزئية تنظر للغة من جانب واحد في الاغلب، وهي في الواقع، ومنذ التعريفات القديمة

ابتداء بتعريف ديمقراطيس الذي يرى في اللغة ضربا من المواضعة بين بني الانسان[٢] ومرورا بتعريف اللغوي العربي ابن جني الذي يذهب الى أن (اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم)[٣] الى التعريفات الحديثة التي وضعها (دوسوسير) و(بلومفيلد) تلك التي يلخصها الى حد ما تعريف اللغوي (كارول) من أن (اللغة اية لغة ليست سوى نظام بنيوي من الاصوات العرفية المنطوقة ، ومن تتابعات الاصوات التي تستعمل أو يمكن أن تستعمل في التعامل بين الافراد، عند مجموعة من البشر ويصنف الاشياء والاحداث والعمليات التي تتم في البيئة الانسانية)[٤] أقول ان هذه التعريفات لا تتعدى في تحديدها للغة الغلاف الخارجي لها ، أو الصور التي تظهر بها ذلك لأنها تغض النظر الى حد بعيد عن العمليات اللغوية العقلية التي تمثل جوهر اللغة ، وفي الحقيقة أن دوسوسير نفسه كان قد جنح متقصدا عن فكرة الجوهر،

اذ ان هذه الفكرة كما كان يعتقد سوف تقوده بعيدا عن المنهج العلمي الصارم الذي الزم نفسه به في دراسة اللغة ، ولعل ذلك نفسه كان الخطأ المنهجي الذي وقع فيه العالم الكبير، اذ انه اقتداء بالطرائق العلمية لعلوم أخرى مثل علم الاجتماع ، حاول انتزاع اللغة من حقل الفلسفة ــ حقلها الشرعي ــ والنظر اليها على انها صورة وليست جوهرا[٥].

وهذا يعني ان كل تلك التعريفات كانت تنظر للغة على انها نظام خارجي مستقل ، نسق، بنية ، من غير أن تشغل نفسها بأعادة الاعتبار لذلك السؤال الفلسفي الذي يبحث عن ماهية اللغة.

ثم اذا نظرنا الى اللغة من قبل وظيفتها أيكون لنا أن نقول ان تلك الوظيفة مقتصرة على فكرة التعبير والتفكير وحدها، أم ان الامر يتعدى ذلك الى وظائف أخرى خفية بعض الخفاء، أو غائبة عن اذهاننا ، ويحتاج تلمسها الى تدبر في مجالات متعددة ، نسأل فيه اسئلة

من قبيل هل اللغة في جوهرها نظام رمزي، أم أن الامر أكثر تعقيدا من ذلك، تخرج فيه من رمزيتها الى ما هو أعمق، لتؤدي وظائف أخرى غير الرمز للاشياء والمفاهيم ، ثم اذا خرجنا من ذلك مرة اخرى ، فلعلنا نسأل أيضا ما نفعنا من اللغة في المجال النفسي، وما نفعنا منها في تنظيم الاشياء والمعلومات والمفاهيم، كي نرى ما ينطوي عليه ذلك الامر من خطورة عظيمة في مجال البحث عن جوهر اللغة.

وهكذا فان ذلك يتطلب منا شيئين ، الاول : اعادة الاعتبار للجانب العقلي في اللغة، والثاني هو هذا الامر الاخير الذي يبحث عن جوهر اللغة في وظائفها الداخلية وهذا ما سنحاول النظر فيه بشيء من الايجاز الذي تتطلبه مثل هذه العجالة .

نعود مرة أخرى الى دوسوسير ، فنقول ان تحديد اللغة بالمعيار العلمي قد بدأ معه، في تصوره ان اللغة ليست مركبا مختلطا من مجموعة من الوحدات

المادية التي يمكن دراستها بشكل تجزيئي، ولا هي شيء داخلي كامن، بل هي نسق، أو نظام من القيم المتقابلة، أي ان اللغة عنده، لم تكن سوى (صورة) ولعل الدافع الأكبر لهذا المنحى انه أراد أن يدرس اللغة مستقلة عن الانسان، اذ رأى في ذلك الاستقلال ما يجعلها ميدانا صالحا للدراسة على أساس علمي محض، خالص من كل نزعة انسانية(٦).

ان هذا التحديد في الحقيقة قد قدم الكثير وما زال في الجانب العلمي، بيد انه بجانب ذلك غض النظر متعسفا عن علاقة اللغة بالعقل ولقد تعمق هذا الاتجاه فيما بعد عند السلوكيين ، ولاسيما بلومفيلد (ومن قبله سابير) حين مالا الى اتباع منهج (آلي) صارم في تفسير اللغة ، ولعل التعريف الذي قدمه بلومفيلد للغة في هذا المجال يوضح الكثير من هذا ، اذ انها في نظره لم تكن غير سلوك انساني مشابه لأي ضرب من السلوك ، بل هي عنده مجموعة من ردود

لافعال مشروطة ، مما ادى الى ابعاد الحياة الانسانيـة اللغوية عن مجال الفلسفة والنزعة العقلية بشكل حاد، والتحول الى دراسة اللغة دراسة سلوكية بحتة[٧].

كما ان منهج دوسوسير قاد بعـد ذلك واحدا من كبار اللغويين المعـاصرين هو الدنمـاركي هلمسليف (١٨٩٩ــ١٩٦٥) الى النظر للغة على انها جهاز (شكلي) من المفاهيم، مما نزع به الى القول بأن الوصف العلمي للغة ينبغي أن ينصب على الشكل فقط، مادام عـالم المعاني مشتركا بين سائر اللغات[٨] ــ وهو الامر الذي يذكرنا بكلمة الجاحظ القديمة من ان المعاني مطروحة في الطريق ــ وما دام وجه الخلاف بين اللغات الانسانيـة قائما في اشكالها حسب ، بيـد ان هلمسليف من خلال تصوره لشكلية اللغةأثار شيئا قد لا يكون جديدا تماما، لكنه عمق في الحقيقة تصورنا عن وظيفة اللغـة ، هـذا الشيء ينصب على انه ما دامت اللغـة شكلا فقط فـان وظيفتها ستكون ذات طابع شكلي أيضا ، وهكذا رأى

هلمسليف ان من شأن اللغة ان تشيع ضربا من (النظام الشكلي) على اشياء العالم عن طريق اسقاط نظامها الشكلي الخاص على تلك الاشياء) .

هذه النظرة (الهلمسلفية) قد افسحت المجال كثيرا لرؤية اللغة من خلال وظيفتها، وهي وان كانت نظرة شكلية ههنا، غير انها كانت تقودنا دون ان نشعر في اتجاهين مهمين في تحليل اللغة، هما اعادة النظر في مسألة الذهن اللغوي الانساني، بسبب من النزعة الانسانية في اعادة تنظيم العالم التي يثيرها هلمسليف هنا، ثم اعادة النظر في وظائف اللغة، ولقد قادت هذه النظرة فيما بعد اللغوي الوظيفي الفرنسي مارتينيه الى ان يعيد ثانية النظر في الطبيعة الوظيفية للغة، وفي الحقيقة ان رأي مارتينيه في هذا الصدد لم يكن غير قلب لطرفي المعادلة الهلمسلفية، اذ كانت اللغة بالنسبة اليه تمثل وصفا انسانيا او طريقة انسانية في فهم العالم، وبعبارة اخرى لم تكن سوى التصور الانساني للعالم، وبذلك أعاد مارتينيه دون قصد

الاعتبار مرة اخرى الى فكرة (داخلية اللغة) ، بيد انه قادنا ايضا الى التفكير بتلك الاشكالية المعقدة عن العلاقة بين الالفاظ والاشياء فعدنا نسأل : هل العلاقة بن اللفظ والشيء علاقة (ترميز) ، أي هل اللفظ رمز لشيء ما أم ان العلاقة بينهما مبنية على أساس آخر .

ان معالجة هذا الامر ستكون معقدة بعض الشيء، اذ ينبغي لنا ان نفهم أول الامر ان الالفاظ لا تشير مباشرة الى الاشياء ، كما قد يخيل للبعض منا وفي الحقيقة ان اللغويين القدماء ، ولا سيما العرب منهم قد فهموا منذ زمن بعيد هذه الحقيقة ، فقد نقل السيوطي في المزهر ان (اطلاق اللفظ دائر مع المعاني الذهنية دون الخارجية فدل على ان الوضع للمعنى الذهني لا الخارجي)[٩] وعجز عن هذا أيضا المفكر الالماني هومبولت (١٧٦٧ — ١٨٣٥) في انه (ليس اللفظ نسخة للشيء ، بل للصورة التي أثارها هذا الشيء في النفس)[١٠] اي انه اذا اردنا تعبيرا آخر قلنا ان اللغة تبدو وكأنها محاولة لانفصال

الانسان عن الاشياء الحقيقية والعيش بمعزل عنها في عالم مجرد ، وهذا ما تحققه له اللغة ، وذلك بالاستعاضة عن الاشياء الحقيقية باسمائها .

ان العلاقة بين الالفاظ والاشياء اذن لم تعد كما يتصور البعض علاقة رمزية ، اذ يبدو ان التحليل يقودنا الى ان العقل الانساني مبني اساسا على الاستعاضة عن الاشياء نفسها ببديل لغوي لها بعبارة اخرى انه يحول اشياء العالم عن طريق اللغة الى معان ، ثم عن طريق تنظيم هذه المعاني في الذات يعيد تنظيم تلك الاشياء ، ليس في العالم الخارجي ولكن في عالمه الروحي ، ومن هذا المنطلق نكتشف ان اللغة تقوم بجانب التفكير والتعبير بوظائف أخرى على جانب في غاية الاهمية في تحقيق الذات الانسانية ، والوجود الانساني ، ومن الواضح ان هذه الوظائف لا ترتبط بصورة اللغة أو بنائها الخارجي ، بل انها تعتمد على الجوهر ، أي ان تلك الوظائف مبنية على الاحساس العميق بأن للغة (وجودا

داخليا) ، ولعل وظيفة التفكير ، المعقدة جدا ، توضح هذا الاحساس ايضا ، مما يستدعي ان نمنح فكرة (جوهرية اللغة) مكانتها الحقيقية في الدراسة .

ان الاسئلة الجديدة التي قدمها نوم تشومسكي ، ذو النزعة الديكارتية ، في هذا المجال قد تكون خطوة حاسمة في سبيل اعادة الاعتبار لمسألة (جوهرية اللغة) ذلك ان اسئلة من قبيل ماذا يحدث في ذهن الانسان حين يؤلف جملة ، او يسمع أخرى ، ما الخطوات اللاشعورية القائمة في تلك اللحظة في محاولة بناء تداخل بين المعاني القائمة في الذهن وصورة اللغة ، هذا الضرب من الاسئلة لا يمكن ان يحل عن طريق المناهج الوصفية او البنيوية او السلوكية ، ثم انه يجعلنا نشعر ان فكرة استقلال البحث اللغوي وعلميته لا تقدم شيئا يتصل بالانسان بوصفه انسانا ، وانما تسعى تحت سيطرة (العلمية) الى الوصف الآلي ، بيد ان الانسان كما يجيب تشومسكي ليس آلة ، وان على البحث اللغوي ان يكون شديد

الصلة بالحياة الانسانية ، بل ان عليه ان يساعدنا في فهم الطبيعة الانسانية من خلال فهم الديناميكية اللغويـــة الداخلية فيها، ثم يعيدنا الى تلك الاسئلة القريبـــة منا ، والتي نغض الطرف عنها دائما ، لكونها مألوفة قريبة ، غير خاضعة للتأمل والتدبر ، لنأخذ مثلا على ذلك طفلا في الخامسة من عمره ، بل ليكن عمـــره اقل من ذلك . ولنراقب كلامه ، سنكتشف ان في مقدوره ان ينطق كل يوم مئات من الجمل الجديدة التي ما كان قد نطقها من قبل ، وان يفهم أيضا كل تلك الجمل التي ما كان قـــد سمعها من قبل، وهذا يعني ــ والكلام لتشومسكي أيضا ــ ان ثمة اصولا عميقة داخلية في التركيب الانساني تجعله يتميز بهذه القدرة(١١) وان تطلب فهم تلك الاصول يعيدنا مرة أخرى الى ذلك السؤال المظلوم : ما اللغة ؟!

وهكذا فان الخطأ المنهجي الذي وقع فيه العلميون المتزمتون انهم لم يلاحظوا ازدواجية البنية اللغويـــة في (جوهر) أو وجود داخلي كامن في داخلنا بوصفنا بشرا

عقلاء مبدعين ، و (صورة) او وجود خارجي ظاهر ذي طبيعة اجتماعية الى حد ما مرتبط بالسلوك،ويمتاز بشيء من الآلية والرتابة وان اللغة كانت دائما تمتاز بهذه الازدواجية في حركتها وان فهمها لا يتم الا من خلال فهم هذا الامر •

الفصل الثالث

تحليل صورة اللغة

ان « صورة » اللغة اذن يقصد بها النسج الذي تخرج به اللغة علينا ، ولنا ههنا ان نفهمها من هذا المنطلق ، واذا كان لنا ان نغض النظر قليلا عما أسلفنا الحديث فيه من ازدواجية مفهوم اللغة عندنا بين جوهر وصورة ، فاننا في هذا الفصل سوف نطلق على تلك الصورة المصطلح الاوسع واعني به « اللغة » متتبعين الى حين ما ذهب اليه دوسوسير وأصحابه في تعريفهم للغة بأنها نظام أو نسق ، بل نظام معقد مؤلف من عدة انظمة تتجانس فيما بينها(١) لتخرج علينا بهذا الاثر الذي نعرفه تحت مصطلح « الكلام » .

فاذا حاولنا تحليل « الكلام » تحليلا مستقلا عن نزعاتنا الانسانية ، معتذرين بما كان دوسوسير يعتذر به عادة في هذا المجال من ان النزعة الانسانية قد تبعدنا عن صرامة البحث العلمي ، وجدنا انه الشيء المادي الاساسي الذي تتصور اللغة فيه .

فمم يتألف « الكلام » ؟!

أعتقد اننا جميعا نستطيع الاجابة عن هذا السؤال متخصصين في مجال البحث اللغوي او غير متخصصين، اجابة قد تكون دقيقة الى حد ما .

ان الكلام يتألف عادة من اصوات « بشرية » يسميها بعضنا « اصواتا لغوية » وبعضنا « حروفا » وهذه الاصوات تتجمع وفاقا لقواعد معينة لتؤلف مفردات مختلفة من اسماء وأفعال وحروف وأدوات ، نسميهاعادة « كلمات » ثم تجنح هذه الكلمات الى الانتظام في تسلسل معين وفاقا لقواعد أخرى ، لتؤلف شيئا نسميه الجملة ، فنعبر بذلك عما يختلج في أنفسنا من أفكار ومعان وعواطف وأحاسيس .

وهكذا فاننا اذا عدنا مرة أخرى الى استعارة مصطلحات علم اللغة قلنا : اننا امام اربعة أنظمة متداخلة فيما بينها ، متجانسة، متعاضدة، يشير كل منها الى جانب واحد مما تحدثنا عنه سابقا ، وهذه الانظمة هي :

(النظام الصـــوتي) أو الفونولوجي Phonology
الذي يبحث في أصوات اللغة من قبل عددها وطرائق ترددها وائتلافها ، وسماتها التشريحية والسمعيةوقيمها اللغوية داخل اللغة المعينة، ثم قوانين تعاملهمـا فيمـا بينهما .

ثم (النظام الصرفي) وهو الذي يبحث في قواعـد تكوين الكلمات المفردة ، ومـا يعتورهـا من ضعف أو انقلاب أو زيادة او نقصان ، كيف تشتق أو تتكون وكيف تفرد أو تثنى أو تجمع ، وكيف تذكر أوتؤنث، ثم كيف نشتق منها فعلا أو مصدرا أو اسما للفـاعل أو اسماً للمفعول ثم (النظام النحوي) الذي نسميـه أحيانا قواعد بناء الجملة ، وهو ما يبحث في ائتلاف الكلمات وانتظامها فيما بينها كي تؤدي الى معنى كامل مفيد ، وهو نظام يختلف من لغـة الى اخرى اختـلافا كبيرا ،فبعض اللغات مثلا لا يجنح الى أن يبدأالجملة

بفعل كالانكليزية ، في حين ان لغة أخرى كالعربيــة لا تجد في ذلك ضيرا البتة ، وهكذا .

شم (النظام الدلالي) الذي يدرس معاني الكلمات، كيف تكون وكيف تتطور ، والعــلاقة بين الالفاظ والمعاني وهو أمر سوف نخصص له الفصل القــادم، ولعل ما يسوغ لنا ذلك أيضا أن المناهج اللغوية تجنح عادة الى دراسته مستقلا الى حد ما عن الانظمةالثلاثة الاولى التي تتعلق عادة بما نسميه نظاما رابعا يتعاضد مع تلك الانظمة من أجل انتاج الكلام، بل انه روح الالفاظ بتعبير الفلاسفة القدامى، شيء يشيع داخل نسيج الالفاظ من غير أن يكون لنا أن نمسكه مسك اليد ، كما هو الامر مع تلك الانظمة .

نعود مرة أخرى الى الانظمة الثلاثة المتداخلةالتي تنتج ما نسميه الالفاظ ، فنتعرف على أولها وهوالنظام الصوتي، اذ أن أول ما يلحظ في تلك الالفاظ انهــا عبارة عن اصوات «بشريــة» متواضع عليهــا ، وفي

الحقيقة انه اذا أغضضنا النظر قليلا عن الكفاءةاللغوية عند الانسان وعن جوهرية اللغة ووجودها الداخلي، فأننا نستطيع القول : ان الانسان يمثل من الناحية الفنية كائنا لغويا راقيا بسبب من امتلاكه جهاز نطق عالي المستوى من الناحية «التقنية» بل يمكن الجزم الى حد بعيد في أنه لا وجود لكائن حي آخر على سطح الارض يمتلك جهاز نطق بهذه الدقة، يسمح له بأحداث عدد هائل من الاصوات اللغوية المتميزة بدقة ويسر قد لا يتوفر لأعظم الاجهزة التقنية المصنعة في هذا الباب ، ولعل هذا الامر من الدلائل التي يرجع اليها علماء اللغويات المتزمتون في عدم وجود لغات عند الكائنات الاخرى، لأن اللغة عندهم بجانب وجود الكفاءة اللغوية العقلية ، بوجود جهاز «تقني» لصناعتها وهذا الجهاز غير موجود بهذا المعنى عند غير الانسان.

يتألف جهاز النطق عند الانسان من مجموعة من الاعضاء لها كل على انفراد وظائف أخرى قد تكون

بعيدة كل البعد عن وظيفتها في جهاز النطق وهــذه الاعضاء تبدأ من الحجاب الحاجز الذي يقوم عن طريق التقلص والانبساط بدفع الهواء الى خارج الرئتين على هيأة دفعات متتالية لأحداث الاصوات اللغوية ، ثــم الرئتين ثم القصبة الهوائية فالحنجرة ذلك الصندوق الذي يحتوي في داخله على وترين صغيرين لا يتجاوز طول كل منهما ٤ر٥سم، ولكنهما مع ذلك يشتملان على أهمية كبيرة في عمليــة النطق مــا يجعلهمــا «عضوا خطيرا» في جهاز النطق، ويطلق عليهما عــادة مصطلح «الوترين الصوتيين» ثم نأتي الى تجويف الفم الذي يتخــذ هيأة تجــويف انبوبي يبدأ من حيث الحنجرة ، وينتهي بالشفتين مكــونا حجرة تصــويت موسيقي نسميها حجرة الرنين resonance chamber ، وفي داخل هــذا التجويف يتخذ اللسان موقعــا مهمــا في عملية النطق ، ثم تأتي بعــد ذلك الاســنان واللثــة والشفتان ليؤدي كل عضو منهــا دورا ما في عمليــة

النطق وتنويع الاصوات اللغوية . وما ينبغي لنا أن نسى التجويف الانفي وتأثيره في هذه العملية ايضا[٢].

ويحدث الصوت حين يندفع الهواء من الرئتين ويدخل الحنجرة حيث الوتران الصوتيان ، فأذا صادفهما مشدودين هزهما ، واذا صادفهما وقد ارتخيا مر من غير أن يهزهما وهذا الشد وذاك الارتخاء يرجعان الى أسباب غامضة علينا للآن، وفي ذلك شيء من «الآلية»، ولكن لتلك العلمية تأثيرا في تنويع الاصوات الخارجة ، فالأصوات التي يرافقها اهتزاز تكون أكثر طاقة وأقوى سماعا ، أما التي لا يرافقها اهتزاز فأن طاقتها تقل وقوتها تضعف، وهكذا كان لنا أن نقسم الاصوات، وبسبب من اختلاف الطاقة والانطباع السمعي الى مجهورة ومهموسة[٣].

غير أن هذه الصفات في حقيقة الامر تؤلف صفات جزئية أو قل ثانوية في تصنيف الاصوات اللغوية ، اذ

أن الصفات تتعدد بعد ذلك ، اذ انه مـا أن يخـرج الهواء المحدث للصوت من الحنجرة ليسلك في تجويف الفم، حتى يتحدد نوع الصوت اللغوي استنادا الى طريقة مرور الهواء في ذلك التجويف ، اذ قد يصادفه عائق ما في موضع من المواضع يعوقه عن المرور مرورا حرا الى خارج الفم، فـلا يتيسر له ذلك الا بعد أن يحدث احتكاكا مسموعا في ذلك الموضع فتنشأ من جراء ذلك تلك الطائفة من الاصوات التي يصطلح عليها بالصوامت consonants أو الصحاح ، أو الاصـول أو أن يخرج الهواء خروجا حرا من غير أن يعترض طريقه الى خارج الفم عـائق ما فينشأ من جراء ذلك تلك الطائفة من الاصوات التي نعرفها بأسم الحركات vowels او المصوتات أو اصوات المد واللين ، وفي أحيان أخرى بتسمية خطأ «حروف العلة»(٤) .

تختلف الصوامت فيمـا بينهـا باختلاف موضع الاعاقة ثم باختلاف نوع تلك الاعاقة ، لان كل واحـد

من هذين الامرين يؤثر تأثيرا شديدا في طبيعة الصوت المسموع الناتج عن تلك الاعاقة ، ومن ثم يكون ذلك التأثير في الانطباع السمعي الذي يخلفه الصوت اللغوي.

لقد اصطلح على تسمية موضع الاعاقة في جهاز النطق بمصطلح «المخرج» أو الحيز place of articulation فأذا كان الموضع عند الشفتين قيل للصوت الذي يحدث ثمة صوت شفوي، واذا كان عند الاسنان قيل له صوت اسناني.. وهلم جرا[٥].

أما نوع الاعاقة Manner of Articulation فيكون على ضربين، الاول : اعاقة كلية وتنشأ حينذاك طائفة من الصوامت يطلق عليها الصوامت الانفجارية plosives اصطلح عليها بهذا لأن الهواء يمنع أول الامر من الخروج منعا باتا ، ثم يسمح له فجأة فيخرج على هيأة انفجار، والتالي. اعاقة جزئية وتنشأ عندنا حينذاك طائفة من الصوامت يطلق عليها الصوامت الاستمرارية

بسبب من أن تيار الهواء يبقى مستمرا في fricatives
الخروج في اثناء تلك الاعاقة(٦).

وبهذا يمكن القول ان ظاهرة الاعاقة (اوالاحتكاك) تعد معيارا جيدا لتصنيف الصوامت وبيان اختلافها بعضها عن البعض الآخر في السمات الفونولوجية ، ومن ثم بالانطباع السمعي الذي تخلفه، غير ان ذلك لا ينطبق على «الحركات» لخلوها من ظاهرة الاعاقة على النحو الذي بيناه سابقا ، فكيف لها اذن أن تتنوع ، وتختلف في الانطباع السمعي، بتعبير آخر كيف لنا أن نميز بين اصوات مثل الضمة والفتحة والكسرة بعضها من البعض الآخر.

في الحقيقة أن تنوع هذه الاصوات يرجع الى اختلاف حركة عضلة اللسان في اثناء النطق بها ، فاذا كانت الصفة الاساسية لهذه الاصوات هي مرور الهواء في أثناء ادائها الى خارج الفم مرورا حرا من غير ان يحدث احتكاك أو اعاقة ، فأن اختلافها فيما بينها

يرجع الى وضع اللسان في اثناء ذلك، اذ أن اختلاف هذا الامر من وضع الى آخر يؤدي الى تغير «حجرة الرنين» فتختلف أصوات الحركة الصادرة عنها تبعا لتلك التغيرات(٧).

يوضح ما تقدم أن جهاز النطق الانساني يستطيع احداث عدد هائل من الاصوات التي تصلح أن تكون أصواتا لغوية ، بيد أننا نلاحظ ان اللغات بوجه عام تختار عددا محدودا من الاصوات اللغوية من بين تلك التي يمكن لجهاز النطق أداءها ويقع هذا العدد تقريبا بين [٢٠–٤٠] صوتا ، لتؤلف من هذا العدد «النظام الصوتي» لتلك اللغة ، فهناك لغات فيها «٢١» صوتا وأخرى «٢٦» صوتا ، وثالثة «٢٩» صوتا ،ورابعة ٣٩ صوتا .. وهكذا(٨).

ان كل صوت من الاصوات المحدودة ، المحددة، الموجودة في نظام صوتي للغة ما يدعى «فونيم» phoneme ، وهذا المصطلح المستعمل منذ القرن

التاسع عشر ، ما زال في الحقيقة مصطلحا غامضا، فهو قد يختلف في ما يعنيه بدقة من لغوي الى آخر، بيد ان استعمال «نيكولاي تروبتسكوي» مؤسس علم الفونولوجيا الحديث له قد يكون الاكثر شيوعا في اوساط الدراسات اللغوية[٩].

لقد رأى تروبتسكوي أن علينا اذا حاولنا أن ندرس الاصوات اللغوية أن نخرج من اسار دراسة الأصوات دراسة عامة الى دراسة الناحية الوظيفية فيها، وتحليل تلك الاصوات من قبل قيمها داخل اللغة، مراعين احساس المتكلمين بها. بيد أن دراسة الاصوات من هذا الجانب قادتنا الى أسئلة عامة ذات طابع فلسفي الى حد ما، أسئلة من قبيل : ما الذي يحدد الصوت، أي يعطيه حدوده واستقلاله عن أي صوت آخر، ومن ثم يعطيه ماهية ما في داخل العقل الانساني أهو أساس عضوي أم نطقي ، أم سمعي ، أم وظيفي ، أم نفسي، أم انه خليط من هذا وذاك من هذه

الأسس، واذا أردنا أن نسأل بشيء من البساطـة قلنا ما العين، وما اللام ، وما الميم كيف نميزها عقليـا عن بعضها، ثم هل لها داخل العقل اللغوي الانساني ماهيات أو هويات أو صور ما ، ثم كيف يمكن لترتيبها في هيأة ما أن يثير في داخلنا تصورات أو أفكارا أو انطباعات، أو أحاسيس مختلفة، فأذا أعدنا الترتيب مرة أخـرى اختفى ذلك كله ليحل محله ضرب جديد من هـذه الامور (١٠).

ثم ثمة اشكال أخر فقولنا ان هـذا الصوت هو النون ، وذلك هو الخاء .. الخ قول غير دقيق ، فهـذه التسميات في حقيقتها اصطلاحات عامة ، غير محددة يدخل تحت كل منها عدد من الاصوات قد يكون كبيرا الى حد بعيد، فأذا أخذنا «النون» مثلا اكتشفنا مختبريا ان هذا الصوت يختلف في صورته النطقية من سياق الى آخر بعض الاختلاف ، فالنون في «ان ظهر» غيرها في «ان شاء» وغيرها في «ان قتل» وغير ذلك كله في

«ينفع» أو «عنبر» •• الخ بعبارة أخرى يمكن القول أن النون أو الخاء أو الباء أو الراء انما هي مصطلحات يقع تحت كل منها طائفة كبيرة من الصور النطقية التي قد يكون من حسن حظنا أن الأذن والدماغ لا يدققان فيها كثيرا ، فكأن كل صوت من هذه الاصوات في حقيقته أسرة من الصور النطقية un pones ، ولكن كيف يغض جهاز السمع الانساني نظره عن هذا الامر(١١) •

لقد حاول علماء الفونولوجيا الاجابة عن هذه الاسئلة اجابة متعددة ، قد تكون مختلفة فيما بينها اختلافا كبيرا ، وفي الحقيقة أن المشكلة كانت قائمة منذ القرن التاسع عشر ، من أيام الفونولوجي القديم «بودان» الذي كان ينحو في تفسيره للفونيم (أي الوحدات الصوتية الصغرى) منحى نفسياً، فيصفه بأنه المعادل النفسي للصوت اللغوي ولقد تابعه في ذلك الى حد ما اللغوي الاميركي «سابير» الذي رأى في

الفونيمات أصواتا مثاليــــة يقع تحت طائلتهـا آلاف الاصوات الفرعية ، ثم جاء «فان ويك» الذي رأى فيها أصغر الوحدات الصوتية التي يشعر الوعي اللغوي عند أعضاء جماعة لغوية معينة بأنها غير قابلة للانقسام(١٢).

لكن البحث في هذا المجال قد توطدت مكانته في الحقيقة على يد نيكولاي تروبتسكوي، الامير الروسي السابق، فلقــد حــاول أول الأمر أن يزيل شيئا من الالتباس الحاصل في الدراسات الصوتية ، وذلك بأن يفرق تفريقا واضحا بين مجالين من مجالات دراســة الاصوات ، هما علم أصوات الــكلام وهو العلم الذي يصف الاصوات اللغوية بوصفها وحدات مستقلة بعضها عن البعض الآخر، فيدرسها دراسة تشريحية ، فيحدد المخارج ، والصفات ، ثم ينظر في أثرها السمعي، فيحلله تحليلا فيزياويا ، فهذا الصوت عنده صــوت شفوي انفجاري مجهور مفخم ، وذلك حنجري مستمر مهموس مرقق.. وذاك صوت حركة أمامي مفخم .. الخ، فلا

يتناول وضعها في اللغة المعينة من حيث وظائفها داخل النظام اللغوي، أو طرائق ترددها وانتظامها في تلك اللغة.

وبين علم أصوات اللغة phonology العلم الذي يحاول دراسة اصوات اللغة من خلال وظائفها داخل النظام اللغوي وقيمها اللغوية ، وبوصفها عناصر في بناء كلي يتصف بسمات فونولوجية معينة يكاد لا يخرج منها، وان خروج هذه الاصوات من ذلك البناء الكلي يزيل عنها هويتها، فكأنها من أجل ذلك لا توجد مستقلة أبدا، وهكذا بدأ النظر للاصوات اللغوية من داخل النظام اللغوي بوصفها فقط وقائع «صوتية» تحتاج الى دراسة طرائق تصنيفها وتنظيمها داخل اللغة ، ووظيفتها ذات الطابع البنيوي البحت.

ومن خلال هذا المنطلق حاول تروبتسكوي تحديد موضع الفونيم من الدراسات الصوتية فبين انه يعود الى المجال الثاني أي الفونولوجيا ، وبذلك غير اتجاه

الدراسة في هذا المضمار بحيث نظر الى أية وحـدة صوتية صغرى لا تقبل الانقسام من خلال وضعهـا داخل النظام الصوتي للغة المعينة وعلاقاتها أو تقابلاتها مع الوحدات الصوتية الاخرى داخل ذلك النظام(١٣).

فأذا كانت تغير المعنى، فأنها تمثل فونيما مستقلا..

وهكذا صار من الممكن لنا أن نضع تعـريفا بسيطا للفونيم بأنه أصغر وحدة صوتية في الكلام الانساني يؤدي تغييرها الى تغيير في المعنى المراد قد يكون كليا، ومثال ذلك أن أي صوتين من اصوات لغة معينـة يصبحان فونيمين اثنين مستقلين عن بعضهما اذا كان في ميسورنا احلال الواحد منهما محل الآخر في أي سياق لغوي ، من نحو «الثاء» و «الخـاء» في العربية في (خـاب) و(ثـاب) و«الزاي» و«النـون» في (زهر) و(نهر)، فتغير هذه الوحدات في الكلمة قاد الى تغير كلي في المعنى مما يعني ان كل تلك الاصوات المتغيرة تمثل فونيمات مستقلة في العربية ، لها هويات محددة

في لا شعور المتكلمين العرب، وبهذه الطريقة نستطيع تحديد فونيمية الاصوات في لغة ما .

وفي بعض اللغات قد تكون احدى سمات الاستقلال الفونيمي لصوت معين مجرد «التفخيم» فيه، فأذا أخذنا مثلا لذلك في العربية ، قلنا ان السين والصاد من ناحية التحليل الصوتي متشابهان ، فهما من مخرج واحد، وكلاهما احتكاكي مستمر مهموس . بيد أنهما يختلفان فقط في درجة التفخيم «الحاصل بسبب درجة تحدب اللسان في أثناء النطق »، فالسين مرقق والضاد مفخم، وهذه الصفة وحدها التي تميز بين الصوتين في العربية، فتؤدي الى أن يكون اختلاف المعنى كليا في كثير من السياقات بأحلال احدهما محل الآخر كقولنا «سفر» و «صفر»، «سحب» ، «صحب» .. الخ ، في حين ان التفخيم في « الباء» لايغير في المعنى، وكثيرا ما ننطق الباء باءا مفخمة من غير ما احساس بالتفخيم كقولنا صباح بالباء المفخمة وهذا يعني من

جانب آخر أنه قد يوجد صوتان مستقلان من الناحيه التشريحية بيد أنهما يؤلفان فونيماً واحــدا كما هو حاصل في الالمانيــة اذ أن D و T اذا حل أحدهما محل الآخر في سياقات معينة لا يتغير المعنى، فكأنهما في تلك السياقات صوت واحد في لا شعور المتكلم الالماني، وكما هو حاصل ايضا في بعض مستويات اللغة العربية من أن الالف والواو والياء قد يحل احدهما محل الهمزة من غير أن يتغير المعنى كقولنا أدهام وادهأم.

★ ★

فاذا انتهينا من فهم ذلك كله قلنا ان هذه الوحدات الصوتية تتجمع بعد ذلك في وحدات اكبر منها، نطلق عليها مصطلح « المقاطع » syllables ومفردها «مقطع»، ولقد عرف هذا المقطع بأنه اصغر وحدة «نطقية» يكون لجهاز النطق الانساني أن ينطقهـا[١٤] ذلك أن هذا الجهاز لا ينطق الاصوات منفردة وليس له الى ذلك من سبيل البتة ، فهو أمر آلي فيه ، فاذا أراد ان ينطق صوتا

ما من تلك الاصوات جاء به متصلا بصــوت آخر أو صوتين أو ثلاثة، وفاقاً لطرائق معروفة عندنا بأســم «النظام المقطعي»، وعادة يكون الصوت الاساس الذي تتجمع حوله هذه الاصوات منسوجة في مقطع صــوت حركة Vowel ، وهو أمر يكاد يطرد في كل اللغات لولا ان بعضها قد يغض النظر عن ذلك قليلا ، ومن أجل ذلك نستطيع تعريف المقطع مرة أخرى بأنه صــوت حركة مكتنف بصوت صامت أو اكثر(١٥).

ثم ان جهاز النطق الانساني لا يستطيع الاداء اداء مستمرا، فيتحيل على ذلك بأن يتوقف عن هذا الاداء بين برهة وأخرى توقفاً لا يكاد يحس به المستمع ، غير ان هذا التوقف يختلف من بيئة الى أخرى، ومن أجل ذلك نلاحظ اختلاف اللغات في النسيج المقطعي.

ويلاحظ ايضا أن مــدة الاداء الفاصلة بين أي توقف وآخر تحتوي على صوت حركة واحد فقط.

ومن هــذا المنطلق يمكن ان نعــرف المقطع تعريفاً

فسلجيا بأنــه مــدة الاداء المحصورة بين عمليتين من عمليات اغلاق جهاز النطق اغلاقــا كاملا أو جزئيا، وبهذا يكون المقطع أصغر وحدة نطقية[١٦].

ان طبيعة اغلاق الجهاز او توقفه عن الاداء تجدد نوعين من المقاطع ، فالأغلاق التام ينشيء مقاطع مغلقة، والاغلاق الجزئي ينشيء مقاطع مفتوحة ، وعلة نوع هذا الاغلاق مرتبطة بنوع الصوت الذي ينتهي به المقطع، فأذا انتهى بصوت صامت كان مغلقا ، واذا انتهى بصوت حركة كان مفتوحا.

وتختلف المقاطع ايضا بدرجة الطول فهناك:

١ ــ مقطع قصير : مكون من صامت وحــركة قصيرة مثل «لَ»

٢ ــ مقطع طويل: مكون من صامت وصوت حركة طويلة مثل «لا»

أو من صامت وصوت حركة قصيرة فصامت مثل «لَنْ»

وثمة نوع ثالث من المقاطع هو «المديد» متألف من صامت وصوت حركة طويلة وصامت مثل «لان» ونوع رابع هو «المديد المزدوج الغلق» متألف من صامت وصوت حركة قصيرة فصامتين مثل «بَحْرْ»(١٧).

وتتباين اللغات بوجه عام في ميلها الى نوع خاص من المقاطع فتكثر منها وتقلل من غيرها، فهناك لغات تؤثر المقاطع المفتوحة، وأخرى تؤثر المغلقة وثالثة تميل لاستعمال النوعين بشكل حيادي، وهناك لغات ترفض المديد، وأخرى الطويل المفتوح .. وهلم جرا.

أما السبب في اختلافها فلعله يرجع الى اختلاف الانظمة الصرفية فيها، ذلك ان كل لغة تتجمع فيها المقاطع لتأليف المفردات وفاقا لقواعد معينة نطلق عليها قواعد التصريف مما يجعل تلك المقاطع خاضعة خضوعا مباشرا لهذه القواعد.

فما هذه القواعد؟!

حين تتجمع المقاطع تنشأ عندنا حينذاك «الكلمات»

التي تمثل المادة الاساس في اللغة ، وفي الحق ان اللغات تختلف اختلافا شديدا في طـرائق تأليف كلمـاتها ، فبعضها يجنح الى عملية نسميها «الاشتقاق» فتضـع موازين وأبنيـة وصيغا ثابتة forms ثم تبني مفرداتها وفاقا لذلك، ومن هذه اللغات لغتنا العربية التي توصف عادة بأنها لغة تحليلية ذات اشتقاق داخلي، لأنها تعتمد أصلا ما مؤلفا في الاغلب من أصوات ثلاثة صوامت، ثم تدخل هذا الاصل في موازين مختلفة لتأليف الاسماء والافعال والمصادر من نحو ما نفعل في أصل من قبيل «ك ت ب» الذي يشير الى معنى «الكتابة» غير المتحقق في صيغة ما فنصوغ منه فعلا ماضيا هو «كَتَبَ» وفعلا مضارعا هو يكتب، وأسم فاعل هو كاتب وأسم مفعول هو مكتوب، ومصدرا هو كتابة ... وهلم جراه

وهناك لغات ذات اشتقاق خارجي تتولد الكلمات فيها غالبا عن طريق اضافة لواصق «جمع لاصقة» على جذر ما، ومن تلك اللغات مثلا الانكليزية ، ولو ضربنا

مثلا على ما يحدث فيها لقلنا ان ثمة جذرا يشيرالى الولادة والتكاثر هو nat ،فأذا أضفنا اليه لاصقة «وهي اللاصقة التي تأتي في آخر الجذر» معروفة في الانكليزية هي ion لولدنا كلمة جديدة هي nation تعطي معنى جديدا هو «أمة»، فأذا أضفنا لاصقة أخرى جديدة هي al أعطينا الكلمة الجديدة مفهوم الوصفية، فـ national تعني قومي، وطني.. فاذا اضفنا سابقة «وهي اللاصقة التي تأتي في اول الجذر» هذه المرة على الكلمة الجديدة ، هي inter ، لولدنا كلمة أخرى هي international التي تعني دولي، شيء لا يتصف بالقومية...الخ.

وهناك لغات تجنح الى توليد الكلمات عن طريق الصاق مجموعات من اللواصق التي لا تعني بذاتها شيئا معينا ولكنها اذا أجتمعت بطريقة ما أو ترتيب ما أعطت معنى ما أو صرفت معنى الى جهة معينة كالاسمية او الفعلية أو المصدرية ، ثم اذا رتبت بطريقة

أخرى أعطت معنى آخر .. وهكذا والمثال المعروف لهذه اللغات هو اليابانية[18].

وهناك لغات تسمى اللغات العازلة ، تكون الكلمات فيها ثابتة البنية ، غير متغيرة ، وأصولها لا تلصق بها لواصق وهي بوجه عام لا تتصرف ، ومن امثلتها المعروفة الصينية[19].

هذه العمليات بوجه عام هي التي تسمى قواعد التصريف.

ثم تجنح الكلمات أو المفردات الى أن تتألف وتنتظم فيما بينها بطرائق مخصوصة لتفيد معنى كاملاً، وهذا الائتلاف أو الانتظام يسمى حاصله «جملة» ، والجملة اساس الكلام ، ويزعم علماء اللغة : أن العقل البشري مبني أصلا على التفكير «الجملي»، أما المفردات فأنها مواد حيادية شبيهة بالارقام المجردة لاقوة لها بذاتها، وانها تستمد القوة من ائتلافها في الجملة.

فما الجملة؟!

اذا استعرنا لغة المناطقة قلنا ان الجملة تتألف أساسا من موضوع ما، ثم محاولة الاخبار عن ذلك الموضوع، يرافق ذلك أحيانا تقييد للموضوع (بالوصف أو الاضافة) أو تقييد للاخبار (بالوصف او الاضافة او الظرفيه..).

ان العلاقة بين الموضوع والخبر تسمى عادة علاقة «اسناد» ومن أجل ذلك نسمى الموضوع أحيانا مسندا اليه والخبر مسنداه

والجملة الاسنادية في الحقيقة تنتظم اللغات جميعا، فليس ثمة لغة انسانية لا تكون الجملة الاساسية فيها هي جملة الاسناد هذه، لكن اللغات تختلف فيما بينها في طريقة التعبير عن الاسناد فالاسناد لا يتم مثلا في لغات كالانكليزية أو الالمانية ألا في جمل فعلية ، في حين ان العربية أو السريانية أو الاكدية القديمة لا تجد ضيرا في ان يكون ذلك في جمل اسمية أيضا والمقصود

بالجمل الاسمية ههنا الجملة التي تخلو من فعل او من رابطة فعلية •

ثم ان اللغات تنحو في ترتيب كلماتها في الجملة نحواً خاصا يختلف من لغة الى اخرى ، فالعربية لا تجد ضيرا من ان تبدأ الجملة الاسنادية بفعل في حين ان الانكليزية لا تتسع لذلك اطلاقا ، ولغات لاتأتي به الا في آخرها • ولغات لاتجد مانعا في تقديم كلامهـــا بعضه على بعض ، ولغات لا يتسع صدرها أبدا لشيء من ذلك ، فكل كلمة لها موضع ما من الجملة لا يكون لها ان تغيره •

لغات تجنح الى التمييز في كلامها بين مؤنث ومذكر تمييزا دقيقا ولغات لا تعرف ذلك الا لماما ، بل لغـات لا تعرفه اطلاقا ، ولعلها تعرف ضربا آخر من التمييز،فثمة لغات تميز بين الضعيف والقوي ، وأخـرى بين الحي والجامد ، وكل ذلك يظهر في بناء الجملة ، وله قواعد معروفة اذا أخطأت فيه سخر منك ابن السليقة من متكلمي تلك اللغات(٢٠) •

ثم ان طائفة من اللغات تجنح الى تغيير ما قليل في الكلمات لتغير في مواقعها النحوية ، كأن تضيف اليها لاحقة أو سابقة أو أن تغير في تصويتها ، أو ان تضيف اليها صوتا معينا يشير الى ذلك التغير في الموقع الاعرابي . ويطلق على هذه الطائفة من اللغات مصطلح اللغات « المعربة » وأفضل مثال لها العربية التي تضيف صوت حركة في الاغلب الى نهايات اسمائها للاشارة الى تغير الموقع ، فالضمة للاسناد والكسرة للاضافة والفتحة للذي ليس موقع اسناد أو اضافة ، وبعضهم يسميه موقع المخالفة .

بيد ان معظم اللغات لا تعرف هذه الحال، وان عرفتها ففي حدود معينة ، فالانكليزية تعرفها في الضمائر مثلا ، والفارسية في المفعول به فحسب ، وهذا الضرب من اللغات يسمى اللغات « المبنية » اشارة الى انها تتجمد على بناء بعينه فلا تخرج عنه .

كل هذه الاختلافات التي تبدو في اعين بعضنا

شديدة دفعت طائفة من النحاة واللغويين الى ان ينظروا الى النظام النحوي في كل لغة على حدة ، ذاهبين الى ان لكل لغة نظاما خاصا في هذا الباب ، أو على حد تعبيرهم « ان كل لغة قانون في نفسها » ، ولقد عرف هؤلاء باسم « الوصفيين » ، فذهبوا من أجل ذلك الى ان الدراسات النحوية واللغوية عامة ينبغي ان تكون دراسات وصفية تصف نظام كل لغة بمعزل عن أية لغة أو مؤثرات أخرى، لان ذلك وحده الذي يصل بنا الى اكتشاف طبيعة تلك اللغة ، ومن ثم يقودنا الى وضع منهاج تعليمي لها .

لقد بدأت هذه النزعة اصلا مع دوسوسير ، بيد انها استوت مع بلومفيلد وسابير اللذين جنحا بها الى « الشكلية » المباشرة ، فكان من نتاج ذلك أن نُظر الى اللغة وكأنها ضرب من السلوك الانساني، المكتسب ،ذي الطبيعة الآلية (او الانعكاسية) الى حد ما مسقطين من الحساب أية صفة ابداعية للغة ، فكان ان استبعد عنصر « المعنى » عند تحليل النظام للغة استبعادا كاملا ، ذلك

لانهما عدا المعاني موضوعا خارجا عن علم اللغة الى علم النفس ، بل وصف في مدرستهما بأنه موضوع « وحدات عقلية أشبه بالالغاز » خارجة تماما عن نطاق أي علم معقول ، وهكذا عولت هذه المدرسة في مقاييسها على مبدأ آلية الموضوع وشكليته[٢١] فكان ان قادهم هذا الى امور منها انهم حاولوا تنقيح الدراسات النحوية من تأثير المنطق ، لاسيما منطق ارسطو ، ثم نبذ أية صفة « معيارية » للقواعد النحوية ، فكان ان نقدوا النحو القديم ذا الطبيعة المعيارية نقدا شديدا وحاولوا وضع علم نحو جديد يتصف بالوصفية لا التعليل والاستقراء والتصنيف لا التصويب وبيان الخطأ والصواب[٢٢] ، بيد أن تلك « الشكلية » في النظر الى اللغة ونظامها النحوي المبالغ فيها كثيرا ، والتي لا تستطيع ان تفسر لنا الجانبين الابداعي والمعنوي في اللغة ، قادت مجموعة من اللغويين للبحث عن مناهج جديدة في تحليل النظام النحوي تعيد للمعنى مكانته من الدراسة ، ولجوهرية

اللغــة أهميتهــا في النظر ، وكان على رأس هؤلاء نوم تشومسكي السالف الذكر وتشارلز فلمور Filimore

لقد حاول تشومسكي وضع نظرية جديدة تفسر لنا النظام النحوي في اللغة تفسيرا مرتبطا بكون اللغة عملا للعقل وآلة للفكر ، مما يستدعي الغاء الصفة الشكلية البحتة لذلك النظام ، والنظر اليه على انه مرتبط بعلاقات عميقة ممتدة داخل جوهر اللغة ، فعليه ، اذا كان لنا ان ندرس بناء جملة ما في لغة معينة ان ننظر اليها من جانبين، الاول يعبر عن الفكر والثاني يعبر عن الهيئة الكلامية التي يخرج بها الفكر ، وانه لا حيلة لنا لكي نفهم العملية اللغوية الا من خلال هــذه النظرة المزدوجــة ، وهكذا أصبحت بنية الجملة النحوية تعبر عند تشومسكي عن بنيتين ، بنية عميقة وأخرى ســطحية ، العميقة تعبر عن « المعنى » وتعكس اشكال الفكر الانساني ، ثم تخضع لطائفة من القوانين لتتحول الى كلام على «السطح» ، ومن هنا جاء اسم التحويلية والتحويليين لهذه النظرية ..

وبهذه الطريقة فان الشكل الكلامي (الجملة) ليس في حقيقته سوى تعديل لجملة عميقة ومن أجل ذلك فاننا لكي نفهم العملية اللغوية من جانب، ولكي نفهم العلاقات النحوية المتجانسة في اللغات البشرية كافة علينا ان نفهم البنى العميقة ، ومحاولة تصنيفها للخروج بقواعد كليه تصلح لدراسة اللغة بمعناها العام ثم دراسة القواعد التحويلية لكل لغة على حدة(٢٣) .

اما تشارلز فلمور ، وهو تلميذ تشومسكي وزميله، فلقد رأى ان المحرك الاساسي في بناء الجملة انما يرجع الى ان المفردات التي تتألف منها الجملة ، مكتنفة في حقيقتها بطائفة من الدلالات ذات الطابع النحوي سماها القوانين المفردية Lexical rules وهي في حقيقتهاطائفة من المعاني الثانوية المحيطة بالمعنى العام والتي تحدد الى حد كبير حركة بناء الجملة، ولو أخذنا مثلا على ذلك لقلنا اننا لا نستطيع مثلا ان نقول جملة من قبيل « سار الراديو على قدميه » ، فهذه الجملة وان كانت صحيحة

من الناحية النحوية الشكلية ، اذ انها متألفــة في النظام النحوي العربي من فعل وفاعل ومتعلق ، الا اننا لا نطلق في كلامنا اليومي شيئا من قبيل هذه الجملة ، لان الاسم « راديو » لا يتواءم مع الفعل « سار » لان لكل واحد منهما صفات مغايرة لصفات الآخر •

ومن هذا المنطلق قال فلمور بأن علينـــا ان نحدد القوانين المفردية التي تحدد حركة الكلمات داخل الجملة النحوية ، ولقد تبين له ان هناك مجموعة من الصفات المعنوية داخل المفردات يمكن أن تصنف ، فكلمــة مثل « طبيب » يمكن وصفها كما يأتي : انها « اسم ظاهر ، حي ، انساني عام ، محسوس ، معدود ، مفرد ، نكرة ، مذكر » • ولهذا فانها داخل جملة ما ستتحرك وفاقا لهذه الصفات بحيث لا يمكن ان تأتي « في الكلام الطبيعي » الا مع مفردات لها بوجــه عام صفات مطابقــة ، فنحن لا نستطيع مثلا ان نصف « النخلة » بأنها « طبيب » ، صحيح انها تتصف بأنها «حية وعامة ومعدودة ومحسوسة

ومفردة « لكنها غير صالحة للاسناد مع كلمة « ضبيب » لان الكلمة الاخيرة تتصف ايضا بأنها ذات طابع « انساني » مما يمنع عنها هذا الاسناد .

وهكذا فاننا نستطيع ان نحدد بهذه الطريقة حركة الكلمات النحوية وفاقا لجدول دقيق من الصفات المعنويه العامة،ومن خلال هذا الجدول يمكننا دراسة بنية الجملة النحوية في لغة ما وحركتها(٢٤) .

الفصل الرابع

اللغة والمعنى

لقد اوضحت الى حد ما الطريقة التي عالج بها التحويليون أمثال تشارلز فلمور علاقة المعنى بالتركيب النحوي للجملة بحيث لاحظنا التأثير العميق لدوائر المعاني المحيطة بالكلمات في بناء الجملة ، وبذلك يمكن القول ان دراسة المعنى قد عادت مرة اخرى الى حقل الدراسات اللغوية بعد ان طرده الوصفيون الشكليون والبنيويون الى الخارج بحجة انه ينتمي الى حقول أخرى كالفلسفة وعلم النفس(١) .

لكن ما قام به التحويليون قد يكون الى حد ما حلا لاشكالية تحديد موقع « المعنى » من التحليل العلمي للغة ، وليس حلا لمشكلة « المعنى » نفسها ، لكن ذلك على أية حال ضرب من اعادة الاعتبار للمشكلة في علم اللغة الحديث .

كيف عالج اذن علم اللغة الحديث هذه المشكلة ؟!

لقد حاول هذا العلم اعادة النظر في المسلّمات الاولى ،

اعادنا الى ما هو مألوف عندنا ، واعاد صياغة اسئلته من هناك اذ لعلنا بسبب من الالفة والاعتياد قد فقدنا الافكار الاساسية في بيان فكرة « المعنى » .

لنأخذ مثلا على ذلك ولنسأل السؤال ذاته الذي سأله عالم لغة كبير مثل جون لاينز Lyons : ما معنى « بقرة » ؟![٢] هذا السؤال الساذج ، ذو الطبيعه الطفولية قد يخفي وراءه كنزنا المفقود، ولنبدأ بالتحليل: لا يقصد بمدلول « بقرة » ههنا حيوانا معينا عندنا أو عند جيراننا أو كنا شاهدناه في مكان ما في يوم ما عند انسان ما .. انه مدلول عام ، ولكن هل يعني هذا « كل فصيلة الحيوانات التي نطلق عليها اسم بقرة»؟!.. نحن نعرف جيدا ان الابقار تختلف فيما بينها بشكل أو بآخر، وان السواد الاعظم من تلك الابقار لم نرها في حياتنا مطلقا ، ومع هذا فاننا نستطيع وببساطة ان نطلق على كل منها نراه لاول مرة كلمة « بقرة » ، وقادرون على استعماله بصورة صحيحة وفي يسر لا يصدق عندالاشارة

الى أي فرد من تلك المجموعة من الحيوانات مهما اختلف لونه وهيأته عن أي فرد آخر كنا قد شاهدناه من قبل.

قد تكون « البقرة » واضحة المعالم ، وقد يعترض معترض على التمثيل بها في هذا المجال ، لكننا سنعيد السؤال مرة ثانية ، ومرة ثالثة .. كي نفهم التعقيد الذي يربط بين الاشياء والالفاظ فنسأل : ما الحشرة ؟! كيف يستطيع العقل الانساني أن يضع آلاف الانواع المختلفة الاشكال والحجوم والالوان والعادات والبيئات ضمن معنى واحد ، بحيث اننا لو شاهدنا لاول مرة حشرة ما لم نرها من قبل البتة ، وهيأتها لا تنطبق على اية حشرة شاهدناها من قبل ، فاننا مع ذلك نقول عنها فورا انها « حشرة » .

واذا اردنا أن نصل الى درجة أعلى من التعقيد في هذا المجال ، لقلنا ان هذه الاشياء اشياء مادية ملموسة قد يكون في الامكان تصنيفها وتحديد العناصر الاساسية فيها ، ولكن الامر يكون على مستوى مختلف

في تلك «الأشياء المعنوية» التي ليس لها من وجود مادي عياني ، ومن ثم لا يمكن تمييزها وفرزها ، او حفظ صورة لها ، ما الحب مثلا ؟! وما البغض ؟ ، ما الجوهر ما الايمان ، ما الصدق، ما الحقيقة ، ما التاريخ ؟ ما كل هذه الاشياء التي يمثل وجودها اللغوي وجودها المادي في الوقت نفسه ، كيف تتمثل في العقل الانساني ، وكيف يستطيع هذا العقل تمييز كل منها في يسر وكيف أحتفظ بمعنى كل منها ؟![3]

ربما كان الخطأ الكبير في مسائل من هذا القبيل اننا نربط فيها دائما بين الاشياء التي في العالم من جهة وبين الفاظها اللغوية من جهة اخرى ربطا مباشرا ، بحيث يظهر عندنا ذلك الفهم الخطأ للعلاقة بين الاشياء والاسماء ، اذ نحن نتصور انها علاقة ترميز، الاسم يرمز الى شيء[4] .. لكن هذا الضرب من التصور يثير اشكالات متعددة لا تنطبق مع الحقائق اللغوية المعروفة .. منها :

١ ـ ان مفردات اللغة ، اي لغة لا تستقيم لشيء من

هذا جميعا ، فما الذي ترمز اليه كلمات من قبيل ، «ان» «هل» ، «قد» ، «لم» .. الخ .

٢ ــ ان دلالة اللفظ بمقتضى هذا الامر دلالة ناشئة من ذاته ، أي ان في اصوات اللفظ وصيغة بنائه مايدل على معناه وان العلاقة بين اللفظ والشيء ليس علاقة اعتباطية .

٣ ــ ان الكلمات « الرامزة » ستبقى في هذه الحالة ثابتة بحيث لا تتغير ، غير ان هذا الامر غير وارد البتة فالكلمات في حركة مستمرة ، بل اذا اردنا الدقة قلنا انها غير محددة المعنى ، واذا اردنا تصور ذلك تصورا جيدا قلنا ان المعنى يمثل دائرة غير واضحة المعالم ، متغيرة باستمرار ، بل هناك لكل كلمة ظلال معان عجيبة غريبة ، فكما ان لكل شيء مادي ظلا نعرفه ونحس به ، فللكلمات ظلال معان يمكن الاحساس بها ومعرفتها الى درجة ما ، فكلمة « حرية » لها معنى معين ولها ظلال معان مختلفة من انسان الى آخر ، كثيرا ما يتحدث عنها الشعراء

والادباء ، وهذا يعني ان للكلمات بجانب معناها العام الذي نعرفه قوة نفسية او عاطفية أو انفعالية متميزة ، أي ان الكلمة تملك في حقيقتها دلالتين (أو معنيين) :

أ ــ دلالة ذهنية •

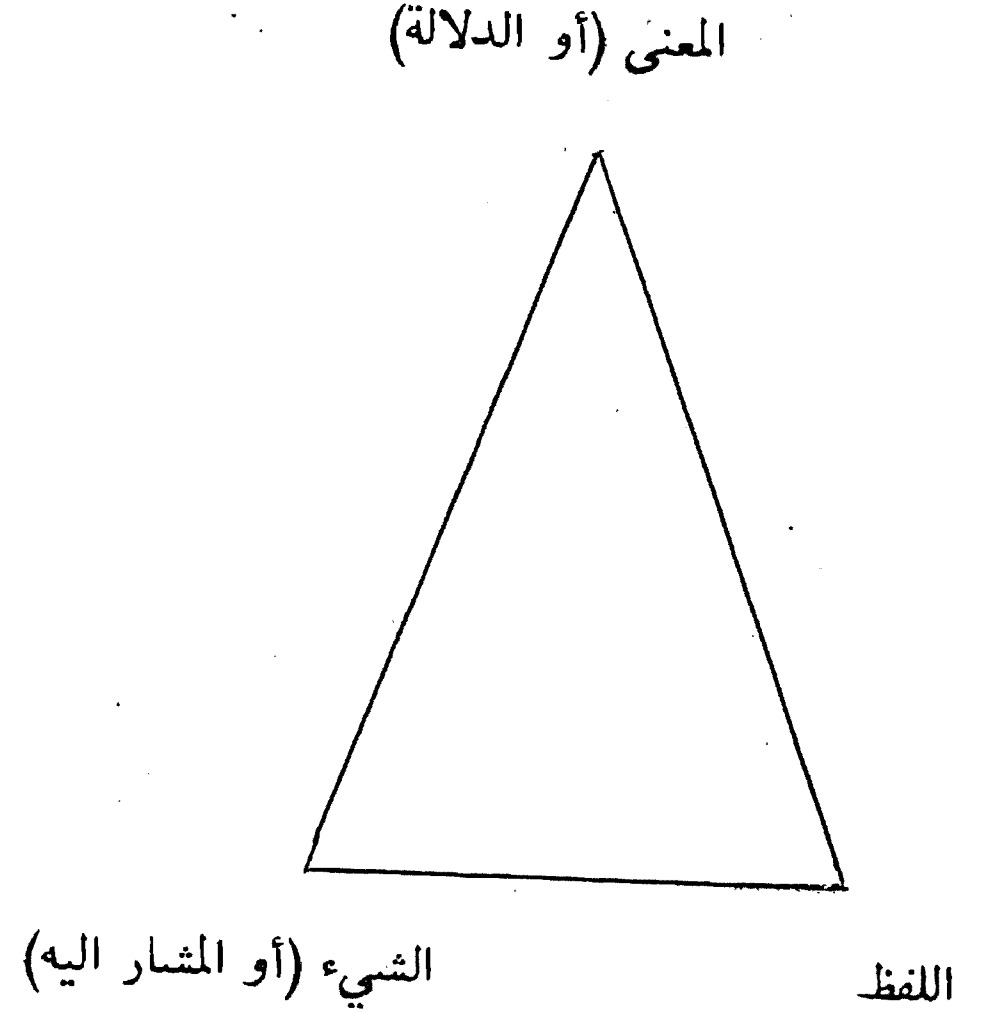
ب ــ دلالة عاطفية او انفعالية •

والدراسات الدلالية تشير الى أهمية الدلالات العاطفية في السلوك اللغوي للأنسان ، وترى أن الكلمات اليومية مشحونة بالارتباطات العاطفية ، بل في كثير من الاحيان تمثل تلك الارتباطات جوهر السلوك اللغوي ، كما يظهر ذلك بوضوح في الأدب مثلا(٥) •

وهذا يعني ان الالفاظ لا تشير مباشرة الى الاشياء والمفاهيم ، كما قد يخيل للبعض منا، ان هناك فجوة بين الاشياء والالفاظ، بحيث يسمح للالفاظ بأن تكون حولها ظلال معان أو معاني هامشية ، ودلالات انفعالية خاصة بها، قد تكون مستقلة عن المثيرات التي تحدثها

الاشياء نفسها، ولعل الرسم الآتي «وهو رسم مشهور في الدراسات الدلالية بأسم المثلث اللغوي» •

يوضح تلك الفجوة بين الاشياء والمفاهيم مـــن جهة وبين الالفاظ من جهة أخرى[٦] •



ولقد فطن القدماء الى هذا الانفصال بين الاشياء والاسماء ولقد عبر السيوطي عن ذلك بقوله «اطلاق اللفظ دائر مع المعاني الذهنية دون الخارجية ، فدل على ان الوضع للمعنى الذهني لا الخارجي»[٧] وهو ماعبر عنه ايضا هومبولت في انه «ليس اللفظ نسخة للشيء ، بل للصورة التي أثارها هذا الشيء في النفس »[٨] .

هذا الانفصال بين اللفظ والشيء (أو المشار اليه) هو الذي يسمح بحرية الحركة للفظ الى حد ما ، بحيث تتجمع حول اللفظ معان ثانوية ، ودلالات عاطفية اضافة الى المعنى العام ذي الطبيعة المعجمية ، كما يسمح له بالتغير المستمر بحيث يمكن أن يطلق على شيء معين في حقبة معينة، ثم يطلق في حقبة أخرى على شيء آخر، مثال ذلك أن «الهجرس» في احدى اللهجات العربية القديمة هي لهجة أهل نجد يعني «الثعلب» في حين انه في لهجة أخرى هي لهجة أهل الحجاز يعني «القرد»[٩] .

ثم ان هذا الانفصال يؤكد حقيقة ذات طابع وظيفي مهم في العملية اللغوية ، هذه الحقيقة تكمن في ان اللغة تمثل ضربا من انفصال الانسان عن الاشياء والعالم، ذلك الانفصال الذي يحقق له وجودا ذاتيا واعيا، بل وربما يعطي للاشياء نفسها صورة أو هيأة ما، تصل الى أعلى درجاتها في تلك المفاهيم التي يحقق وجودها اللغوي وجودا ماديا لها، كمفاهيم الصدق واليقين والطيبة والكذب والشر والفهم...الخ.

وهذا أمر قد يجعلنا نعيد النظر في موقع «المعنى» من اللغة ، بحيث نعطيه في دراساتنا عن اللغة اهميته الحقيقية ، انه شيء مرتبط بجوهر اللغة ، بكيانها الداخلي حتى يمكن القول ، وفي شيء من السذاجة، انه لا وجود للغة خارج المعنى، كل كلامنا سيصبح مجرد هواء.. هواء فقط كما يقول شكسبير.

الفصل الخامس

نشأة اللغة

كيف نشأت اللغة ؟!

هذا سؤال قديم في تاريخ المعرفة الانسانية ، ونحن لا نعرف في الحقيقة ، الاجابات القديمة ، بيدأن افلاطون قد بين لنا شيئا من الجدل القائم بين الفلاسفة القدامى في هذا الشأن ، ففي حوار «كراتيل» ذكر لرأيين منسوبين الى هرقليدس وديموكريتس ، نزع هرقليدس في اولهما الى القول بأن اللغة نشأت مع الطبيعة حيث «يوجد بالطبيعة اسم صحيح لكل كائن في الحياة، اذ الكلمة ليست تسمية يطلقها البعض على الشيء بعد التواطؤ ، لكن ثمة بالطبيعة» في حين رأى ديموكريتس «أن الطبيعة لا تأخذ على عاتقها ان تطلق اسماء خاصة على أشياء خاصة ، التسمية وليدة التكرار والعادة عند الذين زاولوا فعلها نفسه»[1].

وهكذا ظهرت عندنا من هذين الرأيين نظريتان تاريخيتان شهيرتان في نشأة اللغة ، عرفت الاولى منهما بالنظرية « التوقيفية » التي طورت فيما بعد على يد العلماء ذوي النزعة الميتافيزيقية فأصطبغت بالصبغة الدينية ، فنظر الى اللغة على أنها توقيف من الله ، اذ أنطق الانسان دون تمهيد أو تعليم أو تدرج، استنادا الى قوله تعالى في الآية الثانية والثلاثين من سورة البقرة «وعلم آدم الاسماء كلها» اذ فسرت الاسماء ههنا عند هؤلاء باللغة « وهكذا نظروا الى نشأتها على أنها كانت مرتبطة بنشأة اول انسان على الارض[٢] .

وفي الحقيقة فقد لقيت هذه النظرية من يسندها ويدعو اليها على مر العصور ، فمن العرب المسلمين كان هناك جلهم كالحسين بن فارس[٣] وأبي علي الفارسي، ومن الغربيين الأب لامي Lamy والفيلسوف دوبونالد de Bonald[٥] .

أما النظرية الثانية فقد عرفت بالتوفيقية أو

الاصطلاحية[٦]، وترى أن اللغة انما نشأت عن طريق الاتفاق بين الناطقين بها وأشهر من ذهب الى القول بها ابن جني اذ رأى «أن اصل اللغة لابد فيه من المواضعة، وذلك كأن يجتمع حكيمان او ثلاثة فصاعدا فيحتاجون الى الابانة عن الاشياء فيضعوا لكل منها سمة ولفظا يدل عليه ويغني عن احضاره امام البصر»[٧]، والرئيس ابن سينا الذي قد يكون أفضل من فسر المواضعة ههنا، ذلك انه لاحظ ان ارتباط اللفظ بالشيء الذي يدل عليه ارتباط اعتباطي، لا علة له، مما يدلل على أن العلاقة بينهما علاقة اتفاقية حسب، وهذا الاتفاق لا يتم الا بالتواطؤ، يقول في هذا الصدد «وسواء كان اللفظ أمرا ملهما موحى به من علّمه من عند الله تعالى معلم أول، أو كان الطبع قد انبعث في تخصيص معنى بصوت هو أليق به، كما سميت القطاقطا بصوتها أو كان قوم اجتمعوا فأصطلحوا اصطلاحا، أو كان شيء من هذا قد سبق فأستحال يسيرا يسيرا الى غيره من حيث لم يشعر

به، أو كان بعض الالفاظ حصل على جهة والبعض الآخر على جهة أخرى، فأنها انما تدل بالتواطؤ أعني أنه ليس يلزم أحدا من الناس أن يجعل لفظا من الالفاظ موقوفا على معنى من المعاني ولا طبيعة الناس تحملهم عليه، بل قد واطأ تاليهم أولهم على ذلك وسالمه عليه بحيث لو توهمنا الاول اتفق له ان استعمل بدل ما استعمله لفظا آخر موروثا او مخترعا اخترعه اختراعا ولقنه للثاني، لكان حكم استعماله فيه كحكمه في هذا»(٨). ومن انصار هذه النظرية من الغربيين الفلاسفة الانكليز آدم سمث Adam Smithe وريد Reid ودوجالد ستيوارت Dugald Stewart (٩).

وبجانب هاتين النظريتين التاريخيتين، وجدت نظريات أخرى منها:

١ ـ النظرية الغريزية : وتعرف ايضا بنظرية Pooh-Pooh وتذهب الى أن اللغة انما ترجع الى غريزة خاصة زود بها الانسان وان هذه الغريزة كانت

تحمل كل فرد على التعبير عن كل مدرك حسي أو معنوي بكلمة خاصة، ويشير أصحاب هذه النظرية الى اشارات التعبير الطبيعي عن الانفعالات ، وكيف ان الاصوات الغريزية تحولت الى عناصر صوتية ذات دلالات مجردة[١٠].

٢ ــ النظرية الطبيعية وتعرف ايضا بنظرية Bow-Wow وتذهب الى أن النشأة الاولى للغة لا تعدو أن تكون تقليدا للاصوات الطبيعية التي سمعها الانسان القديم ثم تحول هذا التقليد الى دلالات مجردة[١١].

٣ ــ النظرية الاشارية وتعرف ايضا بنظرية tata وترى أن اللغة انما نشأت عن ارتباط بعض حركات اللسان بحركات الجسم والاشياء الخارجية[١٢].

٤ ــ نظرية الارهاق وتعرف أيضا بنظرية Yo-he-ho وتذهب الى القول بأن اللغة انما نشأت من صيحات التعب التي كان الانسان الاول يطلقها في أثناء العمل

أو بعده فتحولت هذه الصيحـات بعد انتظامهـا الى دلالات مجردة[١٣].

ولقد بقيت هذه النظريات مسيطرة على البحث في نشأة اللغة الى حقبة متأخرة ، الى أن اخذت ريـاح التجديد تهب مرة أخرى مع العصور الحديثة ، بتأثير مباشر للثورة الصناعية والاكتشافات الجغرافية والعلمية والآثارية ، وظهور الدراسـات الاجتماعية ذات الطابع الانقلابي ، التي امتد ظلها الكبير على علـم اللغة ، فسيطرت النزعة الاجتماعية على الدراسات اللغويـة سيطرة كاملة ، مما حدا بالباحثين في نشأة اللغة الى اعادة النظر فيها وفاقا لهذه النزعة ، فأسلموا اول مـا أسلموا بأن اللغة من صنع المجتمع ، فلا لغة بلا مجتمع ولا مجتمع بلا لغـة ، ولذا ما يكون لهم أن يبحثوا في نشأتها بمعزل عن البحث في نشأة المجتمع[١٤]، ولعل اكثر هؤلاء تسليما بهذا الامر العالم اللغوي الاجتماعي أوتو يسبرسن Otto Jesperson الذي حاول ابتداع

منهج لغوي اجتماعي في تفسير نشأة اللغة منطلقا في ذلك من أسس ثلاثة هي[١٥] :

١ ــ دراسة مراحل نمو اللغة عند الاطفال باعتبار أن النمو في هذا الشأن كان مشابها لنمو اللغة عند الانسان تاريخيا انطلاقا من نظرية هيكل Haeckel [١٦] المعروفة بنظرية التلخيص العام التي تقرر أن المراحل التي يجتازها الطفل في مظهر ما من مظاهر حياته تمثل المراحل التي اجتازها النوع الانساني في هذا المظهر.

٢ ــ دراسة اللغات في الامم التي تصنف على انها أمم «بدائية!!»

٣ ــ دراسة تاريخية للتطور اللغوي التاريخي

ولقد أعطت دراسة النمو اللغوي في هذا المجال تصورا ما عن النشأة اللغوية الاولى مقسمة الى مراحل ثلاث على النحو الآتي:

١ ــ المرحلة الاولى: مرحلة الصراخ ولم تكن اصوات اللغة فيها مميزة محددة ، وانما هي اصوات

مبهمة تشبه اصوات التعبير الطبيعي عن الانفعال كالضحك والبكاء والصراخ واصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والاشياء كدوي الريح وخرير الماء وصوت القطع •

٢ ـ المرحلة الثانية: مرحلة التصويت وفيها ظهرت الاصوات اللغوية بشيء من التمييز•

٣ ـ المرحلة الثالثة : مرحلة المقاطع وفيها ظهرت الوحدات النطقية الصغرى المتألفة من صوتين او اكثر قليلا المتألفة من صوامت وحركات•

ثم أخذت هذه المقاطع بالاستقرار في الكلام الانساني في الاشارة الى اشياء معينة ظاهرة ،ملموسة، ولكنها شيئا فشيئا نزعت الى التجريد والدلالات الفكرية • وكان الاجتماع الانساني هو المحرك الاول في هذا التحول(١٧)•

بيد أن هذا الضرب من النظريات كان يغض النظر تماما عن الكفاءة اللغوية الموجودة داخل عقل الانسان،

والتي قد تكون المفسر الاول لظهور اللغة ، ولعله من أجل ذلك حاول فندريس اعادة النظر في نشأة اللغة منطلقا من مبدأ ان الانسان كائن عاقل ، فذهب الى ان اللغة كانت في الاصل عندما لم يكن مخ الانسان صالحا للتفكير انفعالية محضة، أو مجرد اصوات تنتظم مع حركات الانسان ، ثم أخذت تتزود بقيمة رمزية يمكن نقلها للآخرين الذين يفهمونها مباشرة، ثم توسعت هذه الحركة اللغوية عند الانسان وكان تقدم المخ والتطور الانساني الاجتماعي والروحي والفكري(١٨).

ان فندريس كما يقال في التعبير الشائع وضع يده على مكمن الداء، اذ انه ربط بين اللغة والتركيب المعقد للدماغ الانساني، فاللغة في الحقيقة مظهر من مظاهر العقل ، لا يمكن دراسة نشأتها بمعزل عن دراسة التركيب الدماغي أو كما يعبر المفكر الالماني همبولت ان « اللغة عمل العقل »(١٩) وعلى أية حال فنحن، وأعني بذلك المتخصصين في مجال علم اللغة ، نجنح بعيدا عن

تلك الدراسات «المغامرة» التي تبحث في نشأة اللغة، ذلك ان السؤال عن نشأة اللغة في حقيقته سؤال من خارج علم اللغة ، من خارج المادة التي جعلها هذا العلم مجالا وهدفا لبحوثه، وأعني بها «اللغة» نفسها، في حالة كينونتها، ان من حق علم مثل الأنثربولوجي أن يعنى به ، بيد أننا سوف نغض النظر قليلا عن هذا الامر لنقرر ما يأتي :

« ان الانسان كائن لغوي بالضرورة »

١ ـ لاسباب عقلية اولا ، أي وجود عقل معقد ومتطور ، قادر على التفكير المجرد ، والابداع ، وبناء علاقات بين الاشياء وتصور المعنويات ، وله خيال ، وذاكرة ، وقدرة على التنسيق والتنظيم ، ويستدل من الآثار والرموز والاشارات على الاشياء ، له قدرة على الاستنتاج، والاستحضار له احساس بالزمان والمكان ، له ذات منفصلة عن العالم والاشياء ، واعية لانفصالها .

٢ ـ له جهاز نطق متطور من الشفاه والاسنان

واللسان وجوف الفم والحنجرة والرئتين والحجاب الحاجز التي تؤدي جميعا عملا متناسقا منسجما في أحداث أصوات معينة ، بطريقة مرتبطة انعكاسيا بالدماغ.

٣ ـ له جهاز سمع دقيق ، خاص ، يميز مجموعة معينة من الاصوات قد تكون من الكثرة بحيث لا يمكن تعيينها .

٤ ـ السلوك الانساني الاجتماعي، الذي ينزع بالانسان الى الاجتماع مع أبناء جنسه، وتنظيم حياته وسلوكه ومصالحه وفاقا للحياة العامة والسلوك المتفق عليه، وهو أمر تلعب فيه اللغة دورا أساسيا.

ولعلنا من أجل هذا كله نرى العقل الانساني مبنيا أصلا على الكفاءة اللغوية ، وأن اللغة وجود حتمي في حياة الانسانية ، ذلك أن الانسان ، اذا استعرنا كلمات الشيخ الرئيس ابن سينا «قد أوتى قوة حسية ترتسم فيها صور الامور الخارجية ، وتتأدى عنها الى النفس،

فترتسم فيها ارتساما ثانيا ثابتا ، وان غاب عن الحس، ثم ربما ارتسم بعد ذلك في النفس أمور على نحو ما أداه الحس، فأما أن تكون هي المرتسمات في الحس ولكنها انقلبت عن هيئاتها المحسوسة الى التجريد ، أو أن تكون قد ارتسمت من جنبة أخرى لا حاجة في المنطق الى بيانها فللأمور وجود في الاعيان ، ووجود في النفس يكون آثارا في النفس، ولما كانت الطبيعة الانسانية محتاجة الى المحاورة لاضطرارها الى المشاركة والمجاورة ، انبعثت الى اختراع شيء يتوصل به الى ذلك ، ولم يكن أخف من ان يكون فعلا ولم يكن أخف من أن يكون بالتصويت ، وخصوصا والصوت لا يثبت الاعلام به مع فائدة انمائه ، اذ كان مستغنيا عن الدلالة به بعد زوال الحاجة عنه، أو كان يتصور بدلالته بعده ، فمالت الطبيعة الى استعمال الصوت ، ووقفت من عند الخالق بآلات تقطيع الحروف وتركيبها معا ليدل بها على ما في النفس من أثر[٢٠].

الفصل السادس

فصائل اللغات في العالم

نقول أولا ان اللغات الانسانية لا تحصى[١] «وان كان ماريو باي [٣] يشير في كتابه أسس علم اللغة الى أن لغات العالم في الوقت الحاضر تقارب ٣٠٠٠ لغة.»[٢] ولو أخذنا مثلا صغيرا على ذلك لقلنا أن الهند وحدها تشتمل على ما يقارب ٨٠٠ لغة حية ، بل ثمة في تلك البلاد لغات تستعملها قرى صغيرة ، ما أن تتعداها حتى يبدأ استعمالها بالانحسار ، وهناك لغات لا نعرف عنها شيئا الى يومنا هذا بل نحن لا ننسى أنه كان يتم بين حين وآخر اكتشاف لغات صغيرة منسية، وهناك لغات ماتت منذ أمد بعيد لم تترك بعدها من أثر ، وأخرى تركت وراءها نقوشا أونصوصا قليلة أو كثيرة، وهناك لغات ماتت بعد أن تركت تراثا ثقافيا عظيما ، ولا ننسى في هذا المجال لغة مثل اللاتينية.

نقول كل هذا لندلل على ما قلناه سابقا من أن اللغات الانسانية لا تحصى، بيد أن ذلك ما كان ليقف حجر عثرة في سبيل وضع مخطط عام للغات الانسانية المهمة، أي لغات الحضارات الكبرى، ليسهل علينا حصرها ومعرفة علاقات بعضها بالبعض الآخر، وأشهر هذه التصنيفات تصنيفان الاول وضعه اللغوي ماكس موللر Muller [٣]، والثاني وضعه الاميركي جرينبرج J. Greenberg [٤].

يرجع التصنيف الاول الذي وضعه موللر اللغات الانسانية الكبرى الى فصائل ثلاث هي:

١ ــ الفصيلة الهندية ــ الاوربية

٢ ــ الفصيلة الحامية ــ السامية

٣ ــ الفصيلة الطورانية

والمقصود بكلمة فصيلة ههنا تلك المجموعة من اللغات التي تتشابه في طائفة من عناصرها ، وتتقارب في طرائق بناء الجملة ، ويذهب جمهور اللغويين الى انها قد تكون

منتسبة الى اصل قديم واحد ثم اخذت كل لغة منها سبيلا مختلفة في تطوير اصواتها ومفرداتها وتراكيبها ودلالات كلماتها ، بسبب من تقادم الزمان واختلاف البيئات وتباين المجتمعات ، لكن ذلك كله لم يدفع عنها ذلك الخيط الرفيع من التشابه ، الذي قد يكون واضحا فيها بشكل خاص في الضمائر والاعداد واسماء الاشارة والموصولات والاسماء القديمة ، وطرائق تركيب الجملة(٥) .

وهكذا يمكن القول اذن ان الفصيلة طائفة من اللغات التي تجمع بينها قرابة ما ، بيد ان علينا ان نقرر في هذا الصدد ان هذه القرابة اللغوية غير القرابة الاسرية ، بل هي امر مختلف عنها اختلافا واضحا ، فنحن احيانا نستعمل تعبيرات مثل الاكادية أخت العربية ، والايطالية اخت الاسبانية ، والفرنسية بنت اللاتينية .. الخ في كتاباتنا اللغوية ، والحقيقة ان هذه التعبيرات غير دقيقة في التعبير عن الحقائق اللغوية ، اذ لا شيء من الشبه بين

قرابة اللغات ، وبين التوالد ، وليس من الممكن لاحدى اللغات أن تلد الاخرى ، وعلى حد تعبير اللغوي الفرنسي جوزيف فندريس ، ليس في مقدور اي عالم لغة ان يحدد اللحظة التي ولدت فيها لغة ما ، فاذا قلنا ان الفرنسية خرجت من اللاتينية ، او ان اللاتينية هي أم الفرنسية، فليس ذلك سوى تعبير أدبي الى حد ما عن ان الفرنسية هي الصورة التي آلت اليها اللاتينية خلال عصور في الارض الفرنسية ، هذا هو مفهوم القرابة اللغوية ومن خلاله يمكن تصور علاقة اعضاء الفصيلة الواحدة فيما بينهم(٦) .

نعود مرة اخرى الى تصنيف موللر فنقول ان الفصائل الثلاث الكبرى عنده هي :

أ ــ الفصيلة الهندية ــ الاوربية : وقد شخصت هذه الفصيلة جيدا بعد اكتشاف العلاقة بين اللغة والايرانية المتشعبة، وتضم هذه الفصيلة ثماني مجموعات

السنسكريتية التي موطنها الهند، وبين اللغات الاوربية بينها عدد من اللغات القديمة الميتة :

١ ـــ مجموعة اللغات الارية : اللغـــات الهنديـــة والفارسية القديمة والحديثـــة ، الافغانيـــة ، الكردية ، الاوردو •

٢ ـــ مجموعة اللغات الايطالية الاسكية ، واللاتينية وما يتفرع منهـــا كالفرنسية والبرتغاليـــة والايطاليـــة والاسبانية ولغة رومانيا •

٣ ـــ اللغات الجرمانية : لغات ايسلندا والدنمارك والسويد والنروج ، والانكليزية السكسونية والحديثة، والهولندية والالمانية •

٤ ـــ مجموعة اللغـــات البلطيقيـــة ـــ السلافيـــة : الروسية والتشيكية والبلغارية والصربية ـــ الكوارتية•

٥ ـــ مجموعة اللغات الاغريقيـــة : ومنها اليونانيـــة القديمة والاتيكية والدورية•

٦ ـــ مجموعة اللغات الكلتية : وهي مجموعة شبه

ميتة الآن موجودة بقاياها في لهجـات ايرلندية وويلزية وغالية .

٧ ــ مجموعة اللغات الالبانية (لهجات) .

٨ ــ مجموعة اللغات الارمينية (لهجات) .

ب ــ الفصيلة الحاميـة ــ السامية : وتشتمل على مجموعتين هما : السامية وتتألف من :

أ ــ الساميات الشمالية : الاكادية (الآشـورية ــ البابلية) والكنعانيـة (العبرية والفينيقيـة والبونيـة والاوغاريتية) والآرامية (السريانية والمندائية) .

ب ــ الساميات الجنوبية : العربية الشمالية(لغتنا) والعربية الجنوبية ، والحبشية (الجعزية والامهرية) .

الحامية :

أ ــ المصريات (المصرية القديمة ، والقبطية) .

ب ــ الليبيات (الليبية القديمة ، والبربرية)

ج ــ الكوشيات : لغات شرقي افريقيا كالصومالية والجالا والبدجا ودنكلا .

ورقعة هذه الفصيلة (الحامية ـ السامية) اصغر من رقعة الفصيلة الاولى ، لكننا نلاحظ ان تراث حضارات كبرى قديمة كان قد كتب بلغاتها كالتراث الاكادي والمصري القديم والتوراة والاناجيل ، كما ان اللغة العربية التي تنتسب لهذه الفصيلة قد استقامت لغة دينية وحضارية لمنطقة واسعة من الشرق بل وصل انتشارها في العصور الوسطى الى حدود الصين فعدت بحق اللغة العالمية لتلك العصور .

ج ـ الفصيلة الطورانية : كالتركية والتركمانية والمغولية والمنشورية ، وهذه اللغات كما يذهب موللر وبونسن Bunsen من بعده الى انها لاتمثل في حقيقتها فصيلة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، فهي لا تؤلف مجموعة من اللغات ذات خصائص مشتركة ، بالوصف الذي سبق في معنى القرابة اللغوية ، ولكنها الى ذلك تتصف بأنها لغات (الصاقية) تتغير الدلالات اللغوية

والتركيبات النحوية فيها عن طريق تغيير مقاطع معينة ، او لواصق معينة[٧] .

ان تصنيف موللر لا يعطينا تصورا كاملا للغات الموجودة في العالم ، فهناك مجموعات لم توضع في هذا المخطط مثلا لغات أفريقيا الوسطى المتنوعة جدا ، أو لغات الهنود الحمر الاميركان التي كانت مسرحا لدراسات قيمة تقدم بها لغويون كبار أمثال بلومفيلد وسابير وبوز Boas الذين كان لهم أثر كبير في تقدم الدراسات اللغوية الوصفية المعاصرة ، لكنه على أية حال مخطط يصور لغات العالم القديم جيدا وعلاقاتها فيما بينها .

التصنيف الثاني : تصنيف العالم الاميركي جرينبرج ويكاد يشتمل هذا التصنيف على لغات العالم الكبرى كلها ، بعد ان وضعها في مجموعات تعتمد على مفهوم القرابة والبيئة الجغرافية . وهي حسب هذا التصنيف على النحو الآتي :

٢ ــ اللغات الافرو ــ اسيوية :

أ ــ السامية الحامية وتمتد على رقعة مشتركة بين آسيا وافريقيا ، وقد بينا لغاتها في تصنيف موللر •

ب ــ الفرع الآري من اللغات الهندية ــ الاوربيــه ويضم لغات شبه القارة الهندية وهضبة ايران •

ج ــ المجموعات الآسيوية :

١ ــ المجموعة اليابانية ــ الكورية

٢ ــ المجموعة الصينية ــ التبتية •

٣ ــ المجموعة الملايو ــ البولينزية

٤ ــ المجموعة الاسترالية ــ الآسيوية وتضم لغات بورما وكمبوديا وفيتنام •

٥ ــ المجموعة الكادية : السياميــــة والتــايلندية واللاوسية •

٦ ــ المجموعة الدرافيدية : وهي المجموعة الهندية القديمة قبل دخول الآريين الى الهند ، توجد بقاياها في جنوبي الهند •

د ـ المجموعات الافريقية :

١ ـ البانتو : مثل السواحلية والزولو في جنوب افريقيا .

٢ ـ اللغات النيجيرية ـ الكونغولية : مثل اليوربا والولوف والفولانية والسانجو .

٣ ـ اللغات النيلية الصحراوية : مثل لغة صنغاي وكنوري .

٤ ـ اللغات السودانية ـ الغينية : مثل لغة الفانتي والايبو .

هـ ـ المجموعات الاوربية

١ ـ الفرع الاوربي من (الهندية ـ الاوربية) .

٢ ـ الفنلدية ـ الاورالية : لغات فنلدا واستونيا والمجر والباسك .

ز ـ المجموعات الاميركية : والمقصود بها لغات الهنود الحمر الاميركان(٨) .

الهوامش

هوامش الفصل الاول

(١) وهو ما يصطلح عليه عادة بـ Linguistics وهو يلتبس عند طائفة من الباحثين بمصطلح philology أي فقه اللغة بل أن فريقا من الباحثين العرب تنظر اليهما على انهما علم واحد، ويمكن لنا أن ننظر في هذا الشأن:
فقه اللغة العربية وخصائصها ، د. اميل بديع يعقوب ص ٢٨–٣٦ علم اللغة/د. علي عبدالواحد وافي ص ١٥–١٦ دراسات في فقه اللغة/د. صبحي الصالح ص ١٩–٢٠ فقه اللغة وخصائص العربية ص ٣٩ معجم علم اللغة النظري /د. محمد علي الخولي ص ٢٠٨ .
بيد أننا نستطيع ههنا أن نضع تفريقا أساسيا بين العلمين على النحو الآتي:
١ ـ اختلاف في الهدف : علم اللغة يدرس اللغة بذاتها لذاتها وفقه اللغة يضع بين اهدافه أهدافا أخرى كبيان الخصائص الاسلوبية والظواهر الادبية واختلاف طرائق الكتابة بين النصوص ، أي انه يملك اهدافا ثقافية عامة.

ب ــ علم اللغة يميل الى دراسة الظاهرة اللغوية بوجه عام ويستشهد بأمثلة متعددة عن لغات مختلفة، او يدرس الاطار العام والبنية الاساسية للغة معينة، في حين ان فقه اللغة يحاول أن يدرس بعض الخصائص فقط ولأسباب تقويمية أو ثقافية عامة كأن يدرس ظاهرة الاعراب من وجهة نظر الافتخار بها او يدرس المقارنات التاريخية بين كتابات لكتاب مختلفين زمنا أو يتتبع تتبعا معجميا مفردات معينة .

ج ــ علم اللغة علم وصفي يقول بوجود الاشياء ويحلل ذلك الوجود غاضا النظر عن كونها نافعة أو ضارة، جيدة أو رديئة ، وفقه اللغة علم معياري يصحح الخطأ، تقويمي يبين ما هو جميل وما هو قبيح ما هو جيد وما هو سيء.

د ــ علم اللغة يميل لدراسة اللغات المحكية ، المسموعة، اوالحية بطرائق وصفية . وفقه اللغة يميل لدراسة اللغات المكتوبة أو الميتة او الفصيحة ونصوصها وبطرائق ذات نزعة تاريخية . ينظر في ذلك مثلا : اسس علم اللغة/ماريو باي ص ٣٥ في علم اللغة العام/د. عبدالصبور شاهين ص ٦ معجم علم اللغة النظري/د. محمد علي الخولي ص ١٥٧ وص ٢٠٨ .

(٢) Encyclopaedia Britannica مادة Panini

(٣) البحث اللغوي عند العرب /د. أحمد مختار عمر ص ٢٥ أسس علم اللغة ص ٢٢٥ .

(٤) محاورات افلاطون /الخطيب/ ترجمة د. اديب نصور ص ٣١-٣٢ .

(٥) فصول في علم اللغة : دي سوسير ترجمة د. أحمد نعيم كراعين ص ١٧ وأسس علم اللغة ص ٢٢٥ وما بعدها.

(٦) فصول في علم اللغة/دي سوسير ص ١٧ . اسس علم اللغة ص ٢٣٠-١٣١ في علم اللغة العام ص ١٤-١٥.

(٧) ينظر مراتب النحويين البصريين/ابو سعيد السيرافي بوجه عام في علم اللغة العام ص ١٠-١٣ .

(٨) فصول في علم اللغة ص ١٧ وما بعدها في علم اللغة العام ص ١٤-١٦ .

(٩) ينظر كتاب دي سوسير بوجه عام بهذا الصدد ، وقد ترجم الكتاب الى العربية اربع ترجمات الاولى في تونس «محاضرات في الالسنية» ترجمة د. صالح القرمادي وآخرين والثانية في سوريا والثالثة في مصر «فصول في علم اللغة» ترجمة احمد نعيم كراعين والرابعة في العراق «علم اللغة العام» ترجمة د. يوسف يوئيل عزيز ، وينظر في ترجمة دي سوسير وأهم ارائه. مجلة اللسانيات. الالسنية «علم اللغة الحديث» قراءات تمهيدية د . ميشال زكريا ، الصفحات ٥٥ ، ٦٧ ، ٢٠٩ ،

٢٣٧، ٢٧٢ . الالسنية (علم اللغة الحديث) المباديء والاعلام ص ٢٢٣-٢٣١ .

(١٠) النحو العربي والدرس الحديث ص ١٠٩ وما بعدها قواعد تحويلية للغة العربية /د. محمد علي الخولي ص ٢٨ وما بعدها الالسنية المباديء والاعلام ص ٢٦٠-٢٦٩ .

هوامش الفصل الثاني

(١) مشكلة البنية /د. زكريا ابراهيم .
(٢) في فلسفة اللغة/كمال يوسف الحاج ص ١٨.
(٣) الخصائص.
(٤)
(٥)
(٦) فصول في علم اللغة/دي سوسير ص ١٩٥ .
(٧) ينظر الالسنية (علم اللغة الحديث) قراءات تمهيدية ص ١١٥ وما بعدها والالسنية (علم اللغة الحديث) المباديء والاعلام ص ٢٣٤-٢٣٥ .
(٨) مشكلة البنية .
(٩) المزهر .
(١٠) مجلة اللسانيات .
(١١) النحو العربي والدرس الحديث/د. عبده الراجحي ص ١١٢-١١٣.

هوامش الفصل الثالث

(١) فصول في علم اللغة/دي سوسير ص ١٩٥ .

(2) Elements of general phonetics
By David Abercrombie p. 55.

(٣) الوجيز في فقه اللغة/محمد الانطاكي ١٤٣ـ١٤٤.

(٤) المصدر السابق ، الصفحات نفسها.

(٥) المدخل الى علم اللغة/د. محمود فهمي حجازي /٤٦ .

(٧) ينظر
The pronounciation of English: Daniel Jones, p. 14-15.

(٨)

(٩) في علم اللغة العام ص ١٢٠

(١٠) المصدر السابق ص ١١٥

(١١) اسس علم اللغة/٤٩ وفي علم اللغة العام/١٢٥

(١٢) في علم اللغة العام ص ١٢٨ـ١٢٩

(١١٣) المصدر السابق ص ١٢١ـ١٢٧

(١٤) المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية /(مجلة حوليات الجامعة التونسية)/١٥١ .

(١٥) موسيقى الشعر/١٤٦ الاصوات اللغوية /٨٧ـ٨٩

(١٦) المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية/١٥١

(١٧) دروس في علم اصوات العربية/جان كانتينو/ ١٩١-١٩٢ .
(١٨) نشأة اللغة عند الانسان والطفل /٥٧-٦٢
(١٩) المصدر السابق /٦٠
(٢٠) اللغة/فندريس/١٢٧
(٢١) نظرية النحو العربي ص ٣٢
(٢٢) النحو العربي والدرس الحديث/٢٣-٤٣
(٢٣) المصدر السابق /١٠٩-١٢٦
(٢٤) اضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة /د. نايف خرما /٣٠٩-٣٣٤

هوامش الفصل الرابع

(١) مجلة الفكر العربي العدد ٩ - ص ١٣٥.
(٢) علم الدلالة/جون لاينز/١٠
(٣) المصدر السابق/١١
(٤) الخصائص ١/٤٠-٤٨ .
(٥) نشأة اللغة عند الانسان والطفل/٣٠-٣١
(٦) المصدر السابق/١٥
(٧)
(٨)
(٩) التهذيب ٦/٥٠٩ «هجرس»

هوامش الفصل الخامس

(١) في فلسفة اللغة/١٧ـ١٨

(٢) فقه اللغة العربية وخصائصها
نشأة اللغة عند الانسان والطفل/٣٠

(٣) الصاحبي في فقه اللغة/٣١ـ٣٢

(٤) الخصائص ١/٤٠ـ٤٨

(٥) نشأة اللغة عند الانسان والطفل /٣٠ـ٣١

(٦) المصدر السابق /٣٢

(٧) الخصائص ١/٤١ـ٤٥

(٨) العبارة لابن سينا/٧ـ٩

(٩) نشأة اللغة عند الانسان والطفل/٣٢

(١٠) في علم اللغة العام/٣٢

(١١) في علم اللغة العام/٩٨ـ٩٩

(١٢) معجم علم اللغة النظري/٢٨٣

(١٣) المصدر السابق /٣١٤

(١٤)

(١٥) في علم اللغة العام/٧٣ـ٧٤

(١٦) نشأة اللغة عند الانسان والطفل/٢١٩

(١٧) المصدر السابق /٥١ـ٥٢

(١٨) اللغة / فندريس/٣٧ـ٣٩

(١٩)

(٢٠) العبارة لابن سينا /٧ـ٩

هوامش الفصل السادس

(١) في علم اللغة العام/١٨١
(٢) في أسس علم اللغة/٩٥
(٣) في علم اللغة العام/١٨١
(٤) المدخل الى علم اللغة
(٥) في علم اللغة العام/١٨٢
(٦) المصدر السابق/١٨٤
(٧) نشأة اللغة عند الانسان والطفل/٦٣ وما بعدها
(٨) المدخل الى علم اللغة

المصادر والمراجع

١ ـ اسس علم اللغة/ماريوباي ترجمة د. احمد مختار عمر
منشورات جامعة طرابلس كلية التربية ١٩٧٣

٢ ـ الاصوات اللغوية د. ابراهيم انيس مطبعة نهضة مصر

٣ ـ اضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة/د. نايف خرما
(سلسلة عالم المعرفة ـ ٩) الطبعة الثانية ١٩٧٩ الكويت

٤ ـ الالسنية (علم اللغة الحديث) قراءات تمهيدية/
د. ميشال زكريا الطبعة الاولى/المؤسسة الجامعية
للدراسات والنشر والتوزيع ١٩٨٤

٥ ـ الالسنية (علم اللغة الحديث) المباديء والاعلام/
د. ميشال زكريا الطبعة الاولى/المؤسسة الجامعية
والنشر والتوزيع الطبعة الثانية ١٩٨٣

٦ ـ البحث اللغوي عند العرب/د. احمد مختار عمر
دار الثقافة بيروت

٧ ـ تهـذيب اللغـــة لابي منصور الازهـــري ت تحقيق عبدالسلام هارون وآخرين، الدار المصرية للتاليف والنشر ١٩٦٤ـ١٩٦٧

٨ ـ دروس في علم أصوات العربية/جان كانتينو ترجمة صالح القرمــادي مــركز الدراســات والبحــوث الاقتصادية والاجتماعية تونس ١٩٦٦

٩ ـ الخصائص لآبي الفتح ابن جني تحقيق محمد علي النجار مطبعة دار الكتب المصريــة القاهرة ١٩٥٢ـ ١٩٥٦

١٠ ـ الخطيب / افلاطون ترجمــة د . اديب نصور ، دار صادر دار بيروت ١٩٦٦

١١ ـ الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامهــا لآحمد بن فارس تحقيق مصطفى الشويمي ـ بيروت ١٩٦٤

١٢ ـ العبارة (الجزء الثالث من كتاب الشفاء)/الشيخ الرئيس ابن سينا تحقيق محمود الخضيري الهيأة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠

١٣ ـ علم الدلالة ـ جون لاينز ـ ترجمة مجيد الماشطة وآخرين مطبعة جامعة البصرة ١٩٨٠

١٤ ـ قواعد تحويلية للغة العربية/د. محمد علي الخولي دار المريخ الرياض ١٩٨١

١٥ ـ فصول في علم اللغة/ف. دي سوسير/ترجمة أحمد نعيم كراعين ـ دار المعرفة الجامعية ـ الاسكندرية ١٩٨٥

١٦ ـ فقه اللغة العربية وخصائصها/د. أميل بديع يعقوب ـ دار انعلم للملايين ـ بيروت ١٩٨٢

١٧ ـ في علم اللغة العام/د. عبدالصبور شاهين مؤسسة الرسالة ط ٣ بيروت ١٩٨٠

١٨ ـ في فلسفة اللغة/كمال يوسف الحاج دار النهار للنشر بيروت ١٩٧٨

١٩ ـ اللغة/ فندريس/ترجمة عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصاص القاهرة ١٩٥٤

٢٠ ـ المدخل الى علم اللغة/د. محمود فهمي حجازي، الكويت

٢١ ـ مجلة حوليات الجامعة التونسية العدد ١٤/١٩٧٣

٢٢ ـ مراتب النحويين البصريين/لأبي سعيد السيرافي

٢٣ ـ مجلة الفكر العربي

٢٤ ـ معجم علم اللغة النظري ـ د. محمد علي الخولي ـ مكتبة لبنان الطبعة الاولى ١٩٨٢

٢٥ ـ موسيقى الشعر د/. ابراهيم انيس المكتبة الانجلو مصرية ١٩٦٥

٢٦ ـ نشأة اللغة عند الانسان والطفل/د. ابراهيم انيس
دار نهضة مصر
٢٧ ـ نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي
الحديث/د. نهاد الموسي المؤسسة العربيةللدراسات
والنشر ط١ الاولى ١٩٨٠

المحتوى

المؤلف :

* دكتوراه في علم اللغة .
* يعمل حاليا بالتدريس
* من مؤلفاته

لهجة تميم والعربية الموحدة
معجم لهجة تميم
في الاصوات اللغوية

* نشر العديد من المقالات والقصص .
* عضو الاتحاد العام للادباء والكتاب العراقيين .